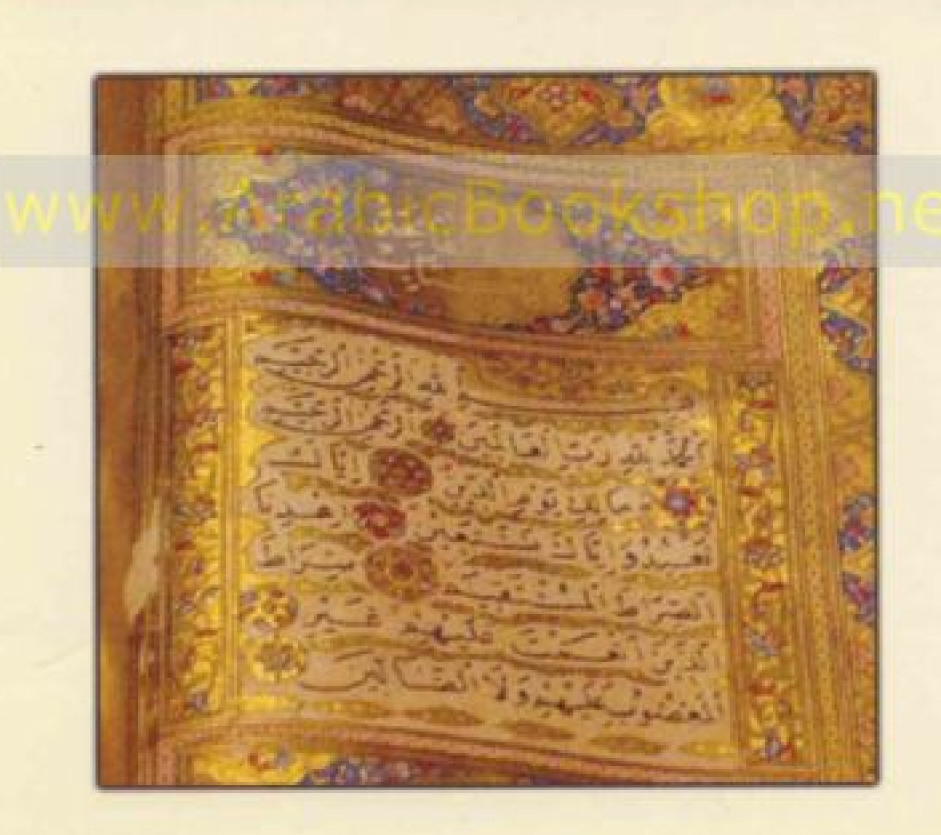
دستور

الإسلام الموحد

راشد شاز



الدار العربية للموسوعات

d:/Arabia2013/Doustour Islam Mowa7ad/Dostour.3d - 13/2/2013

دستور

الإسلام المؤحد

اسم الكتاب: دستور الإسلام الموحد
المؤلف: راشد شاز
الطبعة الأولى: ٢٠١٣م - ١٤٣٤هـ

ISBN 978-9953-563-



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: **www.arabenchouse.com** البريد الإلكتروني: **info@arabenchouse.com**

دستور
الإسلام المؤحد

تأليف
راشد شاز

الدار العربية للموسوعات
بيروت



تمهيد

على الرغم من انتماء الشيعة والسنة في عصرنا الحاضر للإسلام، إلّا إنهم يعيشون في منازل متفرقة، فمصالحهم الملية مختلفة، وكتبهم مختلفة، وعلماؤهم مختلفون، حتى أن مساجدهم أيضاً باتت منفصلة، ولم يقف الأمر على الشيعة والسنة فقط بل إن مختلف الفرق والطوائف الإسلامية من الإسماعيلية والإباضية أو تلك التي ظهرت في الآونة الأخيرة من السلفية، وجماعة التبليغ، والديوبندية، والبريلوية أيضاً قد خصصت كل منها مساجد مستقلة لها، ويمكن بسهولة معرفة إلى أية فرقة أو طائفة ينتمي أي مسجد من خلال الكتب الدينية المتواجدة فيه، وإذا أمعنت النظر قليلاً فلن تخفى حقيقة أن هذه المساجد أو المدارس الدينية وإن كانت فيما يبدو تلمع بالتدين، وتغمر بالظواهر الدينية، وتصدع مآذنها بنداء «الله أكبر»، إلّا إنها في الحقيقة صارت قلاعاً لضيق الأفق، والتعصب، والتحزب، إذ ترفع فيها رايات للفرق والطوائف

المختلفة بدلاً من عبادة الله الواحد، ولا يسعنا إلّا أن نقول – وبكل أسف – أنها فى الحقيقة ليست مراكز للتوحيد بل هي معاقل للشرك والوثنية تحارب الإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي ذاته.



تقديم

إن **دستور الإسلام الموحد** ليس محاولة لبناء أي إسلام جديد، بل دعوة للعودة إلى الإسلام العالمي والنبوي الذي توجد وثيقته الخالدة غير المحرفة بين أيدينا اليوم فى صورة القرآن الكريم، غير أن هذه الدعوة بالعودة إلى القرآن الكريم تختلف عن سائر المحاولات الإحيائية والإصلاحية السابقة حيث حاول المصلحون السابقون التزام الصمت بشأن الالتباسات الفكرية التي طرأت على الدين الحنيف أو الفرار منها، وقد توصلنا إلى نتيجة مفادها أنه طالما لا تحرر الأمة نفسها من المرجعيات الأجنبية غير النبوية، فإنها لا تتمكن من الاعتصام بحبل الله المتين من جديد؛ لذا كان لزاماً أن تقوم الأمة الإسلامية بمحاسبة غاياتها وأهدافها ومسيرتها الفكرية فى ضوء القرآن الكريم محاسبة خالصة أمينة، فتترك دونما تردد ما هو مغاير للإسلام، حتى لو سقط بناء الطائفة المحببة لدينا جراء ذلك.

إن الإسلام شيء، والتاريخ الإسلامي شيء آخر بالكلية، فالأول عبارة عن الرسالة المحمدية، وهى رسالة خالدة نتشرف نحن أتباع محمد ﷺ بحملها، وعلى النقيض منه التاريخ الإسلامي الذى هو قصة المسيرة التاريخية لأتباع محمد ﷺ عبر العصور، تلك المسيرة التى تحمل فى طياتها لمحات من العزيمة والإرادة، وكذا وقائع مؤسفة للأحداث. . . . عندما تفرقنا كأمة إلى شيعة وسنة بسبب النزاع السياسي والالتباس الفكري فى مرحلة تاريخية معينة، وعندما انقسمنا إلى معسكرات الأئمة الأربعة بسبب التعقيدات الكلامية والفقهية، وعندما دَمِي وجودنا الملي جراء التحارب الدامي بين الشافعية والحنفية، فإذا كنا بالأمس قد انقسمنا إلى فرق وطوائف بسبب الالتباس الفكري، وتصادمت سيوفنا فيما بيننا، فلا يلزم أن نصبغ هذه الزلات البشرية صبغة عقدية تجعل إصلاحها أمراً مستبعداً.

إن وجود تباين فى الرؤى والأفكار بين البشر ليس بمذموم، ولكن صبغه صبغة عقائدية، وظهور فرق وطوائف متفرقة بناء على التفسيرات المختلفة أمر مذموم للغاية، وثمرة للابتلاء بالشرك، فعلماؤنا الكبار الذين قبلوا الدين كمجموعة تناقضات لا يريدون أن يُعملوا قلوبهم وعقولهم كيلا تهتز دعامة إسلامهم المفضل. وعلى صعيد مغاير يعاني جيلنا الجديد الذى يعيش فى عصر الإنترنت من ارتباك وتشتت فكري شديد، فهو يصعب عليه إدراك لماذا انقسمت الأمة الواحدة التي خلفها رسول الله ﷺ من أتباعه من بعده إلى فرق وطوائف شتى كالشيعة والسنة والإسماعيلية

والإباضية وغيرها، ومن العجيب أنه لا تتحسر قلوبنا ولا تبكى عيوننا اليوم على غياب قالب الإسلام الموحد، فكل فرقة أو جماعة تصر بكل وقاحة وتبجح على أنها الحق، ويصعب على شبابنا الفطن فى النهاية - الذى يحوز اليوم سائر أمهات الكتب وكذا الثروة الفقهية والكلامية فى متناول يده، والذى يمكن له توفير كم هائل من الوثائق العلمية والمباحث الدقيقة بحركة بسيطة من أصابعه على لوحة المفاتيح - إدراك بسبب أي تعليم قرآني كان انقسام المسلمين فيما بينهم جراء أتباع الأئمة الأربعة؟. فالله ﷻ لم يبتعث سواء أبى حنيفة أم الشافعي أم كبار مؤسسي طوائف السنة والشيعة الأخر جميعهم، وكذا فإنهم لم يصحبوا رسول الله ﷺ، فلماذا تبوءوا مكانة مؤسسي الدين والمفسرين الأبديين؟ ولماذا أوجبت طوائف مختلفة من المسلمين على أنفسها أتباعهم؟ فعندما كان المسلمون أمة واحدة فى عصر صدر الإسلام، وعندما لم يكن هؤلاء المؤسسون للمذاهب الفقهية والمدارس الطائفية قد لاحوا فى أفق التاريخ، كانت حياتنا الدينية تسير على أفضل ما يكون، ولذلك فلا مانع اليوم من تزيين بساط الحياة الدينية دون تدخل منهم.

عهد رسول الله ﷺ بأمانة الإسلام إلى الأمة، وكان حَمَلة هذه الرسالة فى عصر صدر الإسلام يسمون أنفسهم بالمسلمين فقط لأن الله ﷻ نعتهم بهذا الوصف، فكيف تغلبت نعوت مختلقة كالشيعة والسنة على نعت الله ﷻ، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ظهرت داخل هذه الفرق أحزاب وجماعات

فقهية مختلفة، ومن العجيب أن كل فرقة وكل جماعة قد عمرت عالماً خاصاً بها من كتاباتها الدينية، وكتب الآثار العقيمة، والتعقيدات الفقهية والكلامية فى مقابل رسالة القرآن الكريم المجمع عليها الخالدة، وهكذا انقطعت صلتها بالرسالة المحمدية. ويشهد الوضع الراهن تحزباً مشئوماً وتنافراً متبادلاً يكتسح الأمة بأسرها باسم الدين، فسواء المدارس الدينية أم مجالس الوعظ والإرشاد أم الصخب للتبليغ والتعليم أم الخطب الرنانة للخطباء، فإنك إذا أمعنت النظر أدركت أن جميع هؤلاء قد انحرفوا عن الدعوة العالمية للإسلام فى الحقيقة، بل ويقومون - مكذبين لها - بإنماء التحزب والتعصب الطائفي، وكأنّ هذا التفكك الكائن فى كل جانب باسم الدين وتبليغ الدين لا يمت بصلة لهذا الإسلام الذي يضع معتنقيه فى وحدة التوحيد ويحولهم إلى بنيان مرصوص لا يقهر.

إن اكتشاف قالب الإسلام الموحد والمفقود وتنقيحه من جديد الآن إنما هو مسئولية دينية مشتركة على كافة فرق وطوائف المسلمين، ولا يتوقف على هذا الأمر مستقبلنا الديني فقط، بل ترتبط به المصلحة الاجتماعية لكافة شعوب العالم أيضاً، ومن هنا يهدف إصدار هذا الكتاب فى الحقيقة إلى تسريع عملية الاكتشاف هذه، وسنحاول أن تجتمع فرق الأمة المختلفة وتتشاور من أجل استعادة ثروتها الفكرية الحقيقية وإعادة إعمار هويتها المشتركة حتى تُبذل الجهود نحو الإتيان بأولائك الذين يعتبرون أنفسهم اليوم بمعزل عن المسلمين، أو

الذين تفرقوا عنا فى أية مرحلة من التاريخ وكانوا جزءاً من قافلتنا قبل ذلك فى هذه الدائرة النبوية مرة أخرى، ويمكن أن تمهد بداية الحوارات بين الأديان، وبين الفرق، بل وبين الجماعات، وبين المذاهب الطريق نحو تحقيق هذا الهدف وتذلل الصعاب الحائلة دونه، وإذا عزمت جميع الفرق -مع الشعور بالخسارة الفادحة - على العودة إلى مأمنها الحقيقي أي الإسلام الحنيف، فمن الممكن بدء جهود مشتركة مستأنفة فى هذا الصدد.

وقد اجتنب عمداً فى هذا الكتاب ذكر المصادر التاريخية والمراجع كي يظل أسلوبه السلس البسيط مع إيجازه الدقيق، أما الراغبون فى المراجع العلمية والدراسة المستفيضة فعليهم مطالعة «**إدراك أسباب تراجع الأمة**» بمجلديه و«**كتاب العروج**»، حيث يوجد ذكر تاريخنا الفكري الممتد لآلاف السنين وما طرأ عليه من التباسات وانحرافات على مر العصور مزيلاً بالمصادر والمراجع العلمية.

ومع إصدار هذا الكتاب تجتاز الآن عملية استعادة الرسالة المحمدية - الممتدة لأكثر من ربع قرن من الزمن - مرحلة الدراسة العلمية والبحث إلى المرحلة العملية والتطبيقية؛ لذا فمهما نشكر الله ﷻ على هذا التوفيق والبسط فى العمر فما قدرناه حق قدره.

راشد شاز

futureislam@gmail.com

دستور الإسلام الموحد

هل أنت مسلم؟ يا ليت إجابة هذا السؤال بالإيجاب، لكن من سوء حظنا أنه ليس الحال كذلك فى الواقع، فإذا ما سألت مسلماً من أي نوع هو؟، إلى أية طائفة أو مذهب ينتمى؟، إلى أية جماعة أو شيخ يتبع، أهو شيعي أم سني، إسماعيلي أم إباضي، حنفى أم شافعي، يتمذهب بمذهب ديوبند أم يسير على نهج السلف الصالح، فحينئذ تذهب فرضية أننا مسلمون فقط (**حنيفاً مسلماً**) نعمل بالإسلام الخالص هباء منثوراً.

وعندما بلغ عدد المسلمين فى العالم اليوم قرابة المليارين إلّا الربع، ولا تكاد تخلو منطقة جديرة بالذكر فى العالم من تحركنا ونشاطنا، فكان مما يبعث على الحيرة الشديدة أن من يطلقون على أنفسهم مسلمين فقط لا غير ويتمسكون بهذا النعت وسط هذا الزحام الكثير من البشر هم قلة قليلة إن لم يكونوا غير متواجدين بالكلية، فكل منا أسير تحزبات وانقسامات مختلفة، نتعارف بفرقنا وطوائفنا التي ننتمي إليها،

والتى تحوى بداخلها أيضاً مذاهب فقهية مختلفة، وطوائف صغيرة فى طوائف كبيرة وهكذا، وكأن مسلم اليوم يجب أن يعرف من أجل استمرار كونه مسلماً أنه أولاً شيعي أم سني، وإذا كان سنياً فلأي مذهب فقهي ينتمى من بين مذاهب أئمة الفقه الأربعة. وهذا هو التقسيم الأدنى الذى لا يتصور كون المسلم بدونه، فمن يخبرهم الآن إلى أية درجة تغاير بل وتتصادم هده التحزبات المختلفة التى خرجت إلى حيز الوجود باسم الفقه والمذاهب مع دعوة الإسلام للتوحيد، فالتوحيد يوحد الناس فى عقد واحد تحت العبودية المطلقة لله الواحد، فيجد كل من العرب والعجم، والسود والبيض، والأغنياء والفقراء، والسادة والعبيد أنفسهم شركاء لبعضهم البعض فى هذه الرابطة الخالدة. فهذا بلال الحبشي وسلمان الفارسي يشكلان أمة إيمانية إسلامية دولية، رغم انتمائهما لأمم ومناطق مختلفة من العالم، ولكن عقب انخراطهما فى دائرة التوحيد توحدت مصلحتهما الدينية، والملية، والسياسية، والجغرافية، فقد كانوا يحيون لهدف واحد ويموتون من أجله. وعلى النقيض من ذلك، فرغم انتماء الشيعة والسنة فى عصرنا الحاضر للإسلام، إلّا إنهم يعيشون فى منازل متفرقة، فمصالحهم الملية مختلفة، وكتبهم مختلفة، وعلماؤهم مختلفون، حتى أن مساجدهم أيضاً باتت منفصلة، ولم يقف الأمر على الشيعة والسنة فقط بل إن مختلف الفرق والطوائف الإسلامية من الإسماعيلية والإباضية أو تلك التي ظهرت فى الآونة الأخيرة من السلفية، وجماعة

التبليغ، والديوبندية، والبريلوية أيضاً قد خصصت كل منها مساجد مستقلة لها، ويمكن بسهولة معرفة إلى أية فرقة أو طائفة ينتمى أي مسجد من خلال الكتب الدينية المتواجدة فيه، وإذا أمعنت النظر قليلاً فلن تخفى حقيقة أن هذه المساجد أو المدارس الدينية وإن كانت فيما يبدو تلمع بالتدين، وتغمر بالظواهر الدينية، وتصدع مآذنها بنداء «الله أكبر»، إلّا إنها فى الحقيقة صارت قلاعاً لضيق الأفق، والتعصب، والتحزب، إذ ترفع فيها رايات للفرق والطوائف المختلفة بدلاً من عبادة الله الواحد، ولا يسعنا إلّا أن نقول - وبكل أسف - أنها فى الحقيقة ليست مراكز للتوحيد بل هي معاقل للشرك والوثنية تحارب الإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي ذاته. ولأنها ارتدت رداء الورع والتقوى فيما يبدو؛ لذا فلو يوجد شعور بخطورتها فلن نشعر بضرورة الحديث عن هذا الوضع بصوت عال، وكلامنا هذا بشأن التفرق المذهبي والتعصب الطائفى ليس بمقتضى أي شعور بالحدة، وإنما بمقتضى فتوى القرآن الكريم ذاته والتى لا تخفى يقيناً على علمائنا الكرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩].

إن التفرق والتحزب شرك، فأولئك الذين يروجون للتعصب الحزبي أو النعت المذهبي، أو أولئك الذين يحبون لأنفسهم نعتاً آخر سوى الإسلام والمسلمين، ويبذلون جهدهم فى سبيل نشره ورواجه، إنما هم فى الحقيقة تركوا سبيل الله

الواحد، وسلكوا طريق الشرك، ولم يعد لديهم من الإسلام إلّا اسمه. وتأمل قليلاً أي واقع مرير هذا أن تنقسم أمة رسول واحد إلى فرق وطوائف شتى متباينة باسم الدين أو تفسير الدين، ففى المدارس الشيعية يصرون على كون التفسير الشيعي للدين هو الحق، والتأكيد على ضلال وزيغ أهل السنة، وعلى الجانب الآخر فلا تزال تبذل الجهود منذ قرون فى المدارس السنية للتأكيد على أن موقف أهل السنة والجماعة هو سبيل المؤمنين، ثم إنه فى هذه المدارس السنية أيضاً إذا انهمك الشافعية فى تمجيد وتقديس علمائهم، يزعم الأحناف أنه لا أدل ولا أفضل من أقوال كبارهم فى فهم الدين. فإذا متعنا الله ببصيرة ثاقبة فلا يسعنا إلّا أن ندرك على الفور أنه لا يزال حقيقة فى هذه المساجد والمدارس والزوايا التي نعتبرها بسبب النظرة الخادعة قلاعاً للدين عمل تكذيب الدين، والتكبير والتهليل لطوائفها وفرقها التي تنتمي إليها، فحيثما يُجرى إعداد الطلاب للجهاد العلمي ضد التشيع، يُجرى فى مكان آخر الإعداد لهدم قلعة البريلوية، وحيثما تعقد مناظرات تدريبية بين الطلاب لإثبات أحَقّية وأفضلية مدرسة ديوبند، تبذل الجهود فى مكان آخر لتوسيع نطاق البيعة الروحية أكثر لأي شيخ، وعليه فهذا العمل المذموم لتنمية التعصب الطائفى وترسيخ الفُرقَة والتحزب باسم الدين لا يزال يوجه طعنات مستمرة للأمة من داخلها. إن هذه التفسيرات المختلفة للدين وما يقوم عليها من فرق وتحزبات مهما تدعي سعة القلب ورحابة الصدر فيما بينها، فالواقع أن

قيام كل هذه الفرق والطوائف يستمد وجوده من رفض وإنكار بعضها البعض، فلو تسحب الشيعة دعواها السياسية ضد أهل السنة فلا يكون هناك أي مسوغ لاعتقاد النص على الأئمة الاثني عشر وأتباعهم، وبالمثل إذا لم يتهم السنة الشيعة بالزيغ والانحراف لانتهى بالنسبة لهم مسوغ أن يحيوا (دينياً) دون الاعتقاد فى الأئمة الاثني عشر، فلا يمكن إذن اتحاد كل من الشيعة والسنة، ولا يمكن أيضاً كون هذه الأمة المتشرذمة كبنيان موصوص ما لم تتخل الشيعة عن تشيعها ويتنازل السنة عن سنّيتهم، وإن كان يبدو ذلك صعباً للغاية لكن إذا كان هناك دافعاً حقيقياً فى القلوب للبراءة من الشرك واعتناق التوحيد فلا يكون ذلك صعب المنال.

إن تصحيح مسار انحراف تاريخي كبير كهذا مضى عليه قرابة الألف عام، ظل خلالها كلا الفريقين يسير على درب التعايش ظاهرياً والتناقض والإنكار باطنياً، الأمر الذى أطلقا عليه كلاهما الدين المعتبر، يحتاج إلى طي بساط هذا النفاق الذى هو عمل صعب للغاية بالتأكيد، إلّا إنه عقب هذه التجربة المريرة الممتدة لألف عام أصبحنا نعى اليوم أكثر من ذى قبل أنه طالما لم نوحد صفنا، ونصلح بيتنا من الداخل فلا يسعنا أن ندخل فى معركة فاصلة مع الأعداء الخارجيين.

ولنتدبر قليلاً! أليس حقيقة أن التتار عندما تجنبوا اقتحام بغداد بسبب الهيبة الروحية الرمزية للخليفة العباسي، كان قد رغبهم وحرضهم على ذلك العالم الشيعي «نصير الدين

الطوسي» من أجل إطفاء سراج هذه الخلافة السنية، وبالمثل عندما أراد المغول تدمير بقايا الخلافة الفاطمية فى قلعة الموت، أيدهم وناصرهم العالم السني «علاء الدين عطا ملك الجويني». ومنذ القرن الرابع الهجري عندما انقسمنا إلى فرق مختلفة، وعندما قامت لدينا خلافتان متبادلتان فى آن واحد، ظل يبذل الجزء الأكبر من قوانا وجهودنا فى دعم وترسيخ فرقتنا، وهدم واستئصال الفرق الأخرى، فهل نستطيع إنكار الحقيقة التاريخية القائلة بأنه عقب إنشاء جامعة الأزهر فى العصر الفاطمي، والتي أنشئت من أجل نشر وترويج المذهب الفاطمي (الشيعي)، أنشئ عدد من المدارس لدينا باسم تدريس العلوم الشرعية تحت مصالح سياسية من أجل كسر شوكة الفاطميين ابتداءً، فأنشئت مدارس بغداد لمواجهة الإسلام الإسماعيلي أو الفاطمي، ورُوِّجت الزوايا والتكايا، وهكذا ظهر التحزب السياسي والمذهبي فى العالم الإسلامي باسم العلم الديني منذ القرن الرابع الهجري، ورغم غياب سبب سقوط كل من الخلافة الفاطمية والعباسية من صفحات التاريخ، إلّا أننا لم نتخلص حتى اليوم من التشتت والتحزب والتشخص الفقهي والمذهبي الظاهر فى ذلك العصر، بل الحق أنه مع مرور الوقت تظل هذه التفسيرات الخاطئة للدين تغذى وتروج باستمرار للفرقة والتعصب الطائفي، الأمر الذي أسفر – بعد البحث فى هذه الأمة الآن – عن عدم وجود أناس يجترأون على القول بأنهم مسلمون فقط لا غير، ولا يتصفون بنعوت

شتى غير إسلامية كالشيعة، والسنة، والإسماعلية، والإباضية، والعلوية، والدروزية، وغيرها، وكذا أنهم لم يؤمنوا بأبي حنيفة أو بالشافعي.

الحاجة إلى بداية جديدة

يبدو عجيباً أن الفرقة والتحزب - اللذين اعتبرا صميم الإسلام بدلاً من الكفر، واللذين يعتبرهما السواد الأعظم من الأمة اليوم بمثابة الرسالة المحمدية - تثار الشكوك والشبهات على أسسهما، ولعلك يخطر ببالك أن الفرق والتحزبات التي لا زلنا نعتبرها صميم الدين الإسلامي، ومستمرون عليها منذ ألف عام على الأقل، ما الحاجة فجأة اليوم إلى إسقاط تلك الأسس من الاعتبار؟ فكم من العلماء والمفكرين ولدوا فى هذه الأمة طوال تلك السنوات الألف، وكم من المفسرين وعلماء الكلام، فلماذا لم يشر هؤلاء إلى هذا الانحراف والزيغ العظيم الذي أشير إليه اليوم عقب قرابة الألف عام؟ ففى تلك الأثناء ظهر فى هذه الأمة علماء الكلام أمثال «الغزالي» و«ابن تيمية»، ومجددون أمثال «شاه ولي الله» و«محمد بن عبد الوهاب»، وعقب سقوط الخلافة فى القرن العشرين لم يدعُ تلامذة «الأفغاني»، ومَدَحَة «إقبال»، وحركات كل من «حسن البنا»، والشيخ «إلياس»، و«أبي الأعلى

المودودي» إلى استئصال هذا الإنحراف واقتلاعه من جذوره، بل ظل موقفهم جميعاً التعايش مع مجموعة الأضداد هذه كمرض مزمن يستحيل علاجه، وانحراف لا يسع الإنسان إصلاحه الآن. فعلى سبيل المثال يؤكد «شاه ولي الله» أن أصل المذاهب الفقهية اثنين فقط هما الحنفى والشافعي، أما الاثنان الآخران فممزوجان داخلهما، غير أنه لا ينجو من التصور الباطل كقوله بأن ظهور الأئمة الأربعة هو من عند الله، وأما «الغزالي» فكان يعد محامياً للموقف العباسي بسبب تدوينه «فضائح الباطنية»، وأما «ابن تيميه» – الذي يتصف بأنه مجاهداً ومجدداً فى آن واحد – فإنه يقول بأن أئمة الشيعة الاثني عشر انحراف وزيغ فى الدين، غير أنه لا يجيب على اعتراض العالم الشيعي العلّامة «الحلي» أنه إذا كان تصور الأئمة الاثني عشر باطلاً، فما المسوغ الديني لأولائك الأئمة الأربعة السنة؟. إذا ما قرأت كتباً للفرق المختلفة، وحاولت تفهم موقفهم تأسف أسفاً شديداً أن الأمور التي أكد هؤلاء فى حلقاتهم ودوائرهم أنها أمور دينية، والتي تذخر مدارسهم الدينية بتعليمها وتعلمها، إنما هى فى الحقيقة تحزبات سياسية على مر العصور لا علاقة لها على الإطلاق بالدين وغايته، فالواقع أن مقدار ما مسخت هذه الشُّروح الطائفية شكل وملامح الدين المبين، ومقدار ما أهدر الدين الإسلامي وضاع فى تلك المناظرات لا يمكن قدره حق قدره طالما لم نعزم على دراسة الكتابات الدينية لجميع تلك الفرق بموضوعية مماثلة على حد سواء.

أما عن قبول الزيغ والانحراف فقط لأنه قد مضى عليه ألف عام، أو تحمل التحزب والتفرق فقط لأنه قديم منذ قرون، فهذا أمر لا يقوم عليه دليل من الدين والشرع والعقل، فالإسلام الذي يستنكر بشدة ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يطالب بأنه إذا تصادمت أقوال العلماء ونهج السلف مع الوحي والعقل فإنها لا يعتد بها، فمثلما أقام نزول القرآن الكريم الرعيل الأول على التوحيد، فكذلك تتمثل مسئولية أتباع محمد ﷺ اليوم فى ظل غياب السنة النبوية أن يظلوا يصححوا مسارهم باستمرار فى ضوء رسالة القرآن الخالدة غير المحرفة. وكأنه فرض على أهل الحل والعقد فى الأمة فى ظل غياب السنة النبوية وفى ضوء القرآن الكريم والأسوة الحسنة - التي يعد القرآن الكريم ذاته مصدرها المعتمد - أن يظلوا يدرسوا ويستعرضوا أفكارهم وأعمالهم باستمرار، فيُقِرُّون ما هو مطابقاً له، ويرفضون دونما تردد ما هو مخالفاً له، حتى وإن كان مدعوماً بعمل تاريخي محرف منذ قرون، ومعمولاً به من قِبَل السلف الصالح.

وتأمل هذه القضية من زاوية أخرى! إن قدم أي انحراف أو قبوله على المستوى العام ليس دليلاً على صحته، كما أن أي انحراف كهذا أو أي خطأ كهذا لا يعدم إمكانية إصلاحه بسبب قدمه فقط، ألا تعلم الحقيقة التاريخية القائلة أن «فرح بن برقوق» - الذي عَدَّه المؤرخون من أسوأ الملوك - كان قد أقام فى الحرم المكي مصلي منفصل لكل فقيه من الفقهاء الأربعة على حدة بعد أن ضاق ذرعاً بالتحارب المذهبي والطائفى فى عهده، الأمر الذى

أسفر عن أداء الأمة الواحدة صلواتها خلف أربعة أئمة مختلفة فى الحرم المكي لمدة تقارب الخمسمائة عام. فى تلك الأثناء ظهر فى الأمة فقهاء وعلماء كلام كبار، غير أنه لم يتجرأ أحد منهم على القضاء على هذا الانحراف، لدرجة أن حركة الإصلاح النجدية جمعت الناس فى مصلى واحد عقب فتحها الحجاز فى بدايات القرن العشرين، والآن وبعد مُضيّ قرابة ثلاثة أرباع قرن من الزمان على ذلك، لا يخطر ببال أحد أي خلل فقهي وقع فى صلواتنا جراء دمج المصليات الأربعة المختلفة. وعليه فلا وجه أن يُعتقد إصلاح مثل تلك الانحرافات الأخرى مستحيلاً.

ليتنا ندرك أن التدهور المتواصل فى الرسم البياني لنا إنما هو جراء تحاربنا الفكري المتبادل فى الحقيقة، والذي جعل الشيعة، والسنة، والأحناف، والشافعية، والبريلوية، والديوبندية، والفرق والطوائف المختلفة الأخرى تتنازع وتتحارب مع بعضها البعض فيما بينهم، ولا تزال هذه السلسلة من العداوة والبغضاء المتبادلة والممتدة لقرابة الألف عام مستمرة، بل إنها تشتد وتحتدم بمرور الوقت، فكيف لأمة فى مثل هذا الوضع تصور مستقبل آمن زاهر لها فضلاً عن ريادة وقيادة أمم العالم الأخرى.

إن صفة النعامة بلا شك تؤجل المشاكل لكن لا تحّلها، بل تظل تزيد من حدتها وخطورتها على الدوام، فمنذ قرون ظل مصلحي الأمة يكررون فكرة أن كلاً من الشيعة والسنة على الصواب، وأن المذاهب الأربعة - رغم اختلافها - تقدم تصوراً

معتمداً للدين. هذا النوع من المغالطات فى الحقيقة أعاقنا عن إدراك المشكلات الحقيقية، فاليوم لن يجدى نفعاً القول بأن المعرضين عن هوية الله الواحد (**حنيفاً مسلماً**) الذين مُنوا بآفة العبودية للفرق والطوائف، والعبودية للأئمة، والعبودية للمشايخ، ومثل تلك العبوديات الأخرى، والذين رفعوا علانية وعلى الملأ رايات فرقهم وطوائفهم بدلاً من راية التوحيد لله الواحد، إنما هم جميعاً على الجادة معاً؛ لأن هذا القول إنكار للوحي والعقل كليهما، فكما ذكرنا سابقاً قول الحق ﷻ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ﴾، فمن لديه ذرة عقل لا يخفى عليه أن من بنوا لأنفسهم هوية طائفية مستقلة داخل الأمة الإسلامية فقد رفعوا راية التمرد والبغي على سبيل المؤمنين فى الحقيقة. إن مصلحة الأمة وقوتها تكمن فى القضاء على الفرق كلها، فكيف يمكن إذن أن تكون جميع فرق وطوائف الأمة – التي تركت هوية المسلم الحنيف، ورفعت راية هويات ونعوت غير إسلامية صارت شيعة، وسنة، وأحناف، وشافعية، وانفلت من أيديها حبل الله المتين – على الحق فى آن واحد!!

الفرق بين الإسلام الحنيف والإسلام التاريخي

ظهر التفرق والتحزب لدى المسلمين وقامت كتل سياسية وفقهية وعرقية صغيرة مختلفة عبر العصور التاريخية المختلفة، فكان إسلام الرعيل الأول منزهاً بالكلية عن كل تلك الاتهامات والترهات، فإذا كنا ندرك إلى حد ما تاريخنا الفكري فيسهل علينا كثيراً التغلب على العصبيات الطائفية وتفهم وجهة نظر الطرف المعارض.

ففى القرون الثلاثة الأولى للإسلام كان المسلمون أمة واحدة رغم كل اختلافاتهم الفكرية والنظرية، فمنذ استشهاد عثمان رضي الله عنه حتى معركتي الجمل وصفين، والثورات الأموية والعباسية بعدها إلّا إنه رغم ذلك لم يكن هناك فرق أو طوائف باسم الدين، وإن ظل هناك فى تلك الأثناء خروج مختلف ما بين صغير وكبير باسم أئمة أهل البيت، إلّا إنه قبل قيام دولة البويهيين لم يكن يخطر ببال أحد أن يحمل القالب الاثني عشري للإسلام هوية نظرية مستقلة، وما كانت التفسيرات الباطنية للإسلام

الاسماعيلي لتصير مدرسة فكرية بديلة معترف بها قبل خلافة الفاطميين، كما أنه لم تكن لتتضح ملامح الإسلام السني أيضاً قبل ظهور العباسيين. فالأمة بأسرها كانت وحدة واحدة رغم كل اختلافاتها الفكرية والنظرية، وكانت تسمية أحد باثني عشري، أو سبعي، أو قطعي تعد من الدعاية المعارضة، وإذا كان أحد يطلق على نفسه أهل العدل والاستقامة، كان الآخر يزعم أنه متبعاً سبيل المؤمنين، وكانت حلقات أهل العلم، ومدارس الفقه والمعرفة، وكتب الحديث تعد تراثاً مشتركاً للأمة بأسرها حتى القرون الثلاثة الأولى، كما كان كتاباً البخاري ومسلم وعشرات الكتب مثلهما الوارد ذكرها فى المصادر التاريخية محل اهتمام مماثل لجميع المدارس الفكرية، وكانت توجد فى كتب الحديث تلك روايات وآثار تحمل ميول شيعية وسنية معاً، فحتى اليوم يوجد فى مسلم روايات شيعية مثل خمرة الصلاة ونكاح المتعة، بل والأدهى من ذلك وجود رواية «غدير خم» الشيعية فى كتب الأحاديث السنية مثل مسند الإمام أحمد بكل رونق ولمعان. علاوة على ذلك فقد أخرج البخاري حديث كتابة وصية النبي ﷺ حين وفاته، وإصرار سيدنا عمر رضي الله عنه على تأخيرها بحجة «حسبنا كتاب الله»، وعشرات الروايات أمثالها التي يستدل بها علماء الشيعة على صحة موقفهم. فالواقع أنه نظراً لعدم وجود تقسيم شيعة وسنة على أسس مذهبية حتى مطلع القرن الرابع الهجري، فكان جامعوا الحديث أمثال البخاري ومسلم يعتبروا ممثلين للأمة بأسرها، غير أنه عندما خصص الشيعة كتباً للحديث

خاصة بهم فى الربع الأول من القرن الرابع صارت تلك الكتب المتروكة مصادر الحديث السنية. فقد تم فى عهد الدولة البويهية جُل العمل العلمي لتشكيل وتدوين الفكر الشيعي المستقل والذى أظهر الشيعة كمدرسة فكرية مستقلة. فلم تكن كتب الحديث التى جمعها «كليني» لتحيا كمفخرة علمية قط ما لم يتم اختيارها ضمن أمهات الكتب لدى الشيعة فى عهد البويهيين، وإذا لم يتم تدوين «نهج البلاغة» على أيدي «الشريف الرضي» و»مرتضى«، وكذا لم تظهر مزارات مدينتي النجف وكربلاء إلى حيز الوجود فى ذات العهد لما ظهر قالب مستقل للإسلام الشيعي إلى حيز الوجود. وبالمثل أيضاً فإذا لم تقم الخلافة الفاطمية فى القاهرة، ولم تروج دروس دعائم الإسلام فى جامعة الأزهر، ولم يُشعر بالحاجة إلى إعداد نفر كثير من العلماء، والدعاة، والمبلغين للتدليل على الإمامة الإسماعيلية، وإذا لم يصل دعاة إسماعيليون تحت شعار الصوفية إلى مدن الملتان، وكرمان، ودهلي، وأجمير لما كان للإسلام الإسماعيلي اعتباراً، ولما عُدَّت الخمسة فى أوساط جماهير المسلمين ذات قدسية كبيرة بسبب آل البيت. كما أنه إذا لم تقم الخلافة العباسية لخلت خطب الجمعة لدينا من مدح العباسيين، وكأنه تقف وراء هذه التفسيرات المختلفة للدين تلكم الأحداث السياسية التي استغلت الدين لمصالحها ومآربها السياسية بلا رحمة ولا هوادة. ومع أن هذه الدول غابت بين آونة وأخرى فى غياهب التاريخ نتيجة صراعها المشترك، فإن ما خلفته من فتن وانقسام

وتمزق يجرح روح الإسلام حتى اليوم، فلا بد من أجل بداية جديدة أن نقرأ التاريخ كتاريخ، ولا نعتبره ديناً، فالأول يحثنا على العبرة والعظة من التاريخ بينما نصير نحن سبباً للعظة والعبرة عقب تمسكنا بالثاني وأتباعه.

نظرة على بعض الانحرافات الهامة

■ الخلافة أم الإمامة

إن ما يباعد بين كل من الشيعة والسنة عن بعضهما البعض هو وجهة نظرهما المتضادة بشأن الإمامة أم الخلافة، فالشيعة الاثني عشرية يعتقدون أن الأئمة الاثني عشر مأمور بهم ومنصوص عليهم من عند الله، والإسماعيليون الذين اعتقدوا ابتداء فى الأئمة السبعة صاروا يوقنون الآن فى الأئمة الأحياء. أما أهل السنة فإنهم يعتبرون الخلفاء الأربعة جزءاً من العقيدة غير أنه عملياً تولى الأئمة الأربعة تسيير حياتهم الدينية منذ قرون، فإذا ما استعرضت اليوم جميع وجهات النظر تلك بقلب وعقل واع متفتح لوجدت ببحث قليل أن جميع هذه المعتقدات لا تمت بصلة إلى الإسلام على الإطلاق، وإنما هي تفسيرات مختلفة للتاريخ دونت فى عصور تاريخية مختلفة عقب استكمال الدين الإسلامي، فلا مسوغ إذن لمنحها قدسية واعتبار العقيدة. فقد تشكل التصور السني الرائج للخلفاء الأربعة فى عهد الخليفة العباسي «المتوكل»، وكان

يُعتقد قبل ذلك أنه قد انتهت سياسة المسلمين المجمع عليها باستشهاد سيدنا «عثمان» رضي الله عنه إذ ظل عهد سيدنا «علي» رضي الله عنه الممتد لأربع سنوات ونصف عبارة عن حروب داخلية متبادلة، وأنكر جزء كبير من بلاد الشام خلافته، ولم يجتمع المسلمون فى عهده على خلافة واحدة، ولهذا السبب كان يكتفى فى عهد «معاوية» رضي الله عنه بذكر الخلفاء الثلاثة فقط، غير أنه فى العصر العباسي جعل الإمام «أحمد بن حنبل» سيدنا «علي» رضي الله عنه جزءاً من الموقف السياسي السني كرابع الخلفاء الراشدين مراعاة لمصالح اجتماعية، على أية حال فقد كان إظهار هذا الموقف حتى عهده محاولة لقراءة التاريخ بأسلوب جديد فقط لا غير، وسرعان ما حظى هذا الموقف بقبول عام نظراً لجلال سيدنا «علي» رضي الله عنه وخدماته الجليلة، فكان من المناسب لاستقرار العباسيين السياسي أن تكون لديهم سعة ورحابة صدر تشمل كافة طوائف المسلمين؛ لذا أصبح بيان فضائل أهل البيت جزءاً من خطب الجمعة جنباً إلى جنب مع الأئمة الأربعة، وسرعان ما أخذت منابر المساجد تصدع بنداءات «سيدا شباب أهل الجنة» و«سيدة النساء فاطمة» مع أدعية أخرى مثل «اللهم اغفر للعباس» و«اجعل الخلافة فيهم»، ومما لا شك فيه أن تعمير الإسلام المشترك وهذا الموقف التصالحي لعب دوراً مهماً للغاية فى قبول الخلافة العباسية والوثوق بها لدى جماهير المسلمين، إلّا إنه بسبب اتخاذ هذه الإجراءات السياسية فى قالب ديني، ونظرة الأجيال المتعاقبة لها كتفسير للدين؛ لذا صارت فيما بعد عقيدة

سنية. على صعيد مغاير فالحقيقة أن تصور الأئمة الاثني عشر الذي يقوم عليه الإسلام الشيعي اليوم لم يكن كبار أهل البيت أنفسهم على علم بسلسلة هؤلاء الأئمة، واليوم يعتبر علماء الشيعة معرفة الفهرس المرتب لهؤلاء الأئمة الاثني عشر جزءاً من العقيدة، وبالتأكيد لم يكن أي فهرس كهذا موجوداً إبان عهد «جعفر الصادق»، فعندما خرج «زيد بن علي» فإنه لم يكسب دعم وتأييد أخيه «محمد الباقر»، فلو يعلم الشيعة فى ذلك العهد أن «محمد الباقر» إماماً منصوصاً عليه، فكيف لم يعلم «زيد» به، ثم إنه كيف يمكن له اتخاذ خطوة إقدامية من تلقاء نفسه دون موافقة إمام الوقت. و«محمد بن الحنفية» - الذى هو من النسل غير الفاطمي للإمام علي رضي الله عنه، والذى ظلت حركاته الثورية وآثاره مصدر اضطراب وقلق للأمويين لمدة طويلة - لم يكن يعلم أيضاً بسلسلة الإمامة الحسنية والحسينية المنصوص عليها، وإلّا فلِم اضطر إلى اتخاذ إجراءات ثورية بنفسه؟. وفى العهدين الأموي والعباسي حدثت قرابة الستون محاولة ما بين صغرى وكبرى للثورة والخروج من قبل مختلف أوساط أهل البيت علاوة على الإمام «الحسين»، فلو يعلم أهل البيت بهذه السلسلة الملهمة للأئمة المنصوص عليهم لما شعروا يقيناً بضرورة الخروج من تلقاء أنفسهم فى ظل وجود هؤلاء الأئمة، الأمر الذى يعنى أن فهرس الأئمة - الذى غدت معرفته اليوم قضية دين وإيمان - لم يكن أهل البيت فى العصور الأولى على علم به، فما المسوغ إذن لاعتباره أساساً للدين؟. ثم إنه كان يوجد فى كل عصور التاريخ

خلاف بين مختلف أوساط شيعة أهل البيت أنفسهم بشأن هذه السلسلة السماوية للإمامة؛ ولهذا السبب تقوم اليوم كيانات مستقلة للإسماعيلية، والاثني عشرية، والنحل الشيعية الأخرى. إن كل هذا التفرق والتشرذم الفكري والنظري سواء لدى أهل السنة أو الشيعة إنما ينبعث حقيقة عن قراءة التاريخ كعقيدة، وتأمل قليلاً! عندما كان الإمام «علي» رضي الله عنه خليفةً للمسلمين، وعندما كان يبسط حكمه على بقعة كبيرة من العالم الإسلامي، فهل كان فى عهده أذان مستقل لدى الشيعة، أم هل كان يأخذ الخمس من أتباعه باسم سهم الإمام؟. إذا لم يكن ذلك كذلك، فلماذا يصر أتباعه اليوم على أذان جديد ونعت ديني جديد؟. أليسوا هكذا يكذبون إمامهم المحترم؟. وبالمثل فهذا هو حال بعض حملة لواء أهل السنة والجماعة أيضاً الذين منحوا خطاب الأئمة الأربعة التاريخي قدسية عقدية، ويرون فى توجيه النقد إليه هدماً لبنيان الإسلام السني. إن تصور الخلفاء الأربعة هو إظهار لعقيدة جامدة فقط، وأما حياتهم الدينية فتسير فعلياً تحت إشراف الأئمة الأربعة الذين كانت لهم اليد الطولى حقيقة فى الفقه الكلامي مثل العديد من أصحاب الفنون الأخرى فى عصرهم، فقد كانت دعامة دعوة هؤلاء الأئمة الأربعة السنة قائمة كل فى عهده، كما كان حال العديد من العلماء الآخرين أمثال «الأوزاعي، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وابن راهوية، وداود الظاهري، وابن جرير الطبري»، وقد نال الإمام «مالك» أولاً تأديباً من الخليفة «المنصور» ثم حظى بتأييده ونصرته بعد ذلك،

مما تسبب فى الاعتقاد بأن «الموطأ» فقهاً رسمياً، أما معاصره «الليث بن سعد» فقد كان راكداً على الساحة الاجتماعية بسبب موقفه غير المهادن فقط رغم ما له من جلالة علمية، لدرجة أنه لم يُتمكن من الاحتفاظ بسيرة مفصلة له كمدرسة فكرية فى الأيام المتعاقبة. وأما الفقه الحنفى فقد تمتع برعاية الدولة نظراً لمقام «القاضي أبي يوسف»، واشتهر فقه «ابن حنبل» بسبب صيرورته مستشاراً دينياً فى عهد «المتوكل»، وإلّا فأهل الفن فى عهده ذاته بل وبعده بمدة طويلة كانوا يعرفونه كمحدث فقط، وما كانوا على استعداد لمنحه صفة الفقيه، وأما مصر فكانت قلعة لتلامذة الشافعي تلقائياً، غير أنه عندما أدرك الشافعي ضرورة كسر شوكة القاضى بسبب المصالح السياسية فى عهد المماليك شعرت القيادة السياسية بالحاجة إلى وجود قضاة بدلاء، وعليه قام «الظاهر بيبرس» - الذي كان قد حظي بتوقير فائق بسبب وقفه زحف المغول فى عين جالوت - بتعيين قضاة للمذاهب الأربعة من أجل الصلح بين الفقهاء المتحاربين، فمن كان يعلم أن هذا القرار المؤقت لحاكم عسكري لا دراية له بالدين ومصالحه سوف يحصل على الاستمرارية والقدسية فى الأيام المتعاقبة، وأنه سيتحتم على المسلمين أتباع أحد هؤلاء الأئمة الأربعة. فلو لم يقم «بيبرس» بتعيين قضاة لتلك المذاهب الأربعة كل على حدة، لصار هؤلاء الأئمة الأربعة جزءاً من تاريخنا العلمي والفكري فقط لا غير شأنهم شأن العشرات من كبار الفقهاء الآخر، ولما حظوا بمكانة أعمدة وأساطين الإسلام السني.

خلاصة القول أنه إذا لم تقم دول بديلة لدى المسلمين بسبب الخلاف السياسي، وإذا لم يشيد الخلفاء الأمويون فى الأندلس، والفاطميون فى القاهرة، والعباسيون فى بغداد قلاعهم السياسية المختلفة، ولم يستغلوا الدين لتدعيم وتبرير سياستهم، لما وجدت على الإطلاق هذه القوالب الدينية المختلفة بهوياتها المستقلة.

الدين الملهم:

مرجعيات بشرية

هل فكرت تارة أن الدين الإسلامي المنزل من عند الله، والذي تم على التمام إبان حياته المباركة ﷺ كما يتضح من الآية القرآنية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فما المسوغ إذن للمرجعيات البشرية فى هذا الدين السماوي؟. فالقرآن الكريم يستدل على صدقه بقوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾، أي إذا لم تجدوا تعارضاً وتضارباً فى تعاليم القرآن الكريم فهذا راجع إلى كونه منزلاً من عند الله، وإلّا فلو كان ديناً وضعياً من صنع البشر لوُجِدَ فيه اختلاف كثير فكراً وعقيدة. ويرجع السبب فى الحقيقة وراء ظهور هذه القوالب المختلفة الكثيرة اليوم فى الدين الإسلامي إلى تدخل التفسيرات والشروح البشرية فى تشكيلها أكثر من الوحي الرباني، ومما يبعث على الحيرة أن ديناً ملهماً توجد وثيقته السماوية غير المحرفة بكامل رونقها اليوم فى شكل القرآن الكريم، فكيف ينسب حملة هذا الدين لأنفسهم صفات مثل حنفية، وشافعية،

وزيدية، وجعفرية، وسلفية، وإسماعيلية وغيرها؟ وكيف حدث أن نال «أبو الحسن الأشعري» سلطة كونه شارحاً ومفسراً للإسلام السني، وتضحى مدونته العقائدية مرجعاً لا غنى عنه للأجيال المتعاقبة، فقد تجاوز فى مسألة العقيدة سواء «الأشعري» أم «الماتريدي»، و«واصل بن عطاء» أم الخليفة «المأمون» و«ابن حنبل»، جميعهم تعدوا تلك الحدود التى حددها الله ﷻ بجلاء تام فى كتابه العزيز بقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾، فبعد هذا البيان العقائدي المفصل متى كانت مندوحة جعل مسألة القضاء والقدر، أو كون القرآن الكريم حادثاً أم قديماً، أو القضايا الخلافية المتعلقة بذات الله وصفاته جزءاً من العقيدة، أو يعد كون الإمام علي رضي الله عنه الخليفة الأول أم الخليفة الرابع من العقيدة بدلاً من التاريخ. إن الله ﷻ أنزل ديناً واحداً، وبين بجلاء فى كتابه العزيز حدود الحلال والحرام والترغيب والترهيب بكافة تفصيلاته، فمتى كان – بعد ذلك – خيار إقرار شيء مكروه وحرام عند فقيه جائزاً ومباحاً عند آخر. بالطبع يمكن اختلاف الفهم البشري فى التوصل إلى غاية الوحي، لكن ما المسوغ إذن لهذا الجور بأن يُعطى الفهم البشري القاصر مكانةَ مصدر للدين؟. مبدئياً نقول اليوم أن السلف أيضاً كانوا بشراً مثلنا يحتمل منهم صدور الخطأ والصواب كليهما، لكن على الرغم من مقولة «**هم رجال ونحن رجال**» فكما لا يستطيع الشيعة نبذ دواوين الكليني، والشيخ مفيد، والشريف الرضي والمرتضى، وشيخ الطائفة «الطوسي» وراء ظهورهم،

فكذلك لا يتجرأ أهل السنة أيضاً أن يتصوروا من جديد معالم الدين المبين النبوية الحقيقية بدون الأئمة الأربعة، حتى أن الذين يزعمون التجديد وترك التقليد والأخذ من الكتاب والسنة مباشرة لا يعدون أتباع السلف الصالح أيضاً. فمن يُفهِمهم الآن أن الذين نعتبرهم السلف الصالح اليوم ما كان لهم ذلك الاعتبار والقداسة فى زمانهم، بل ظل هناك تطاعن وتباعد بينهم وبين معاصريهم، فإذا اشتملت حلقة لأهل العلم على مادحيهم وتلامذتهم، لا تكف الحلقة الأخرى عن تكذيبهم بل وتكفيرهم أيضاً فى كثير من الأحيان. وقد سجل لنا «الخطيب البغدادي» التطاعن والتباعد بشأن كبار الفقهاء وتلامذتهم فيما بينهم للعظة والعبرة، فالبخاري ومسلم - اللذان يُقدس كتابهما اليوم مثل القرآن الكريم حتى أن البعض لا ينتبه لوصف كتابهما بقوله «**أصح الكتب بعد كتاب الله**» - كان حولهما خلاف أيضاً فى زمانهما، فيقال أنه عندما احتدم الخلاف بين «محمد بن إسماعيل البخاري» و«محمد بن يحيي الذهلي» لم يكن من اليسير على الإمام «مسلم» تقرير من يؤيد من أستاذيه، وفى النهاية قطع صلته بـ«الذهلي»، وذهب فى معارضته له لدرجة أنه أرجع له جميع الأحاديث والآثار التى أخذها عنه. وتأمل هنا قليلاً! فلو لم يحتدم الخلاف بين هذين الشيخين، فكم كان سيختلف اليوم شكل صحيح الإمام «مسلم»، وعليه فلا وجه لمنح مؤلفات بشرية - تحَكَّمَ العقل البشري فى جمعها وتدوينها وتحقيقها وتحليلها - مكانةَ مصادر دينية أبدية لدرجة

يتشكل معها الإسلام السني على أساس الصحاح الستة، ويُشَيَّدُ معها بنيان الإسلام الشيعي على أساس «الكافي»، و«ابن بابويه»، و«استبصار الطوسي»، و«نهج البلاغة».

ظهور أحبار الإسلام

عندما كان القرآن الكريم المرجع الوحيد لأفكارنا وأعمالنا فى القرون الأولى للإسلام، لم يخطر ببال أحد الرجوع إلى شيوخ كبار للاسترشاد بشأن أية مسألة، فقد كان بإمكان امرأة بدوية الاعتراض علانية على فهم سيدنا «عمر» رضي الله عنه للقرآن، ويشعر «عمر» رضي الله عنه بخطئه، ويرجع عن موقفه من على المنبر كما نقلت عنه بالتفصيل كتب التاريخ والآثار بشأن قضية المهر. كما ظل موقف «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه الحاسم تجاه مانعي الزكاة فريسة للتجمد بسبب عدم الإجماع عليه إلى أن تم إطلاق سراح أسرى حروب الردة فى عهد سيدنا «عمر» رضي الله عنه، فعندما لا يكون فهم واستنباط كبار الصحابة كأبى بكر وعمر رضي الله عنهما بمنزلة الفتوى، بل ويرى عامة المسلمين تحديه فى ضوء القرآن حقاً لهم، حينئذ يمكن تقدير مدى الأهمية القصوى التى بلغها القرآن الكريم فى حياة الأمة الفكرية، وكان الرعيل الأول للمسلمين يدرك تماماً حقيقة أن الإسلام قد ربط العبد بالله

مباشرة بلا واسطة، فليس من مجال الآن لأية بابوية أو مشيخة بين العبد وربه، فقد عَرّف القرآن الكريم بجلاء تام «محمد» رسول الله ﷺ كنبي يضع عن الناس إصر الطقوس والقيود الدينية وعلائقها المصطنعة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾، إلّا أنه لسوء الطالع غاب هذا الوصف المميز للإسلام فى القرون المتعاقبة، ورغم أن بداية ذلك من «**الرسالة**» للشافعي، إلّا أن تصور العالِم الإسلامي نُقِّحَ تماماً فى عهد الفاطميين عندما حاز التفسير السياسي للدين مرتبة العلوم الشرعية، وتغلغلت العلوم الروحية والدينية فى سلسلة المدارس النظامية المستقلة عن دور العلم، وزوايا وتكايا الصوفية. ويخلو القرآن الكريم بالكلية من مصطلح العلوم الشرعية، وهذا يُعلِّمنا أن التحريم والتحليل إنما هو أمر يرجع إلى الله ﷻ فقط لا غير، حتى أن رسول الله ﷺ أيضاً ليس مشرعاً بل شارحاً كما روي عنه ﷺ: «**إني لا أحل إلّا ما أحل الله فى كتابه، ولا أحرم إلّا ما حرم الله فى كتابه**».

يخصص القرآن الكريم بوضوح تام حق الفتوى لله فقط لا غير كما تدل عليه الآية: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾، فليس من مجال نظري عقب كل هذه التصريحات المبِينة لوجود طبقة من العلماء والمشايخ عندنا على نحو طبقة الكهنة، والأساقفة، والربانيين تزعم أنها بارعة فى العلوم الشرعية وأهل للفتوى. غير أنه من المؤسف أنه عندما كان الخلفاء العباسيون مضطرون لتسليم السلطة للمحتلين والغاصبين زمن انحطاط

الخلافة، فقد مكنوا على الصعيد الاجتماعي بعض الفقهاء والمحدثين من منصب المشيخة بحجة الورع والتقوى والعلم الديني، وكان لدى العلماء والمتصوفة قبولاً شعبياً، كما كانت قوة السيف فى أيدى السلاجقة الطامحين فى السلطة، فانتهزت الخلافة المضمحلة الفرصة فى التصالح والتفاهم مع كلا هذين الفريقين من أجل بقائها، وهكذا تمزقت الخلافة - التي كانت حيناً مزيجاً من القيادة الدينية والسياسية فى آن واحد - إلى فرقتين. وقد وقع جراء هذه المصلحة المؤقتة ضرر جسيم لا يعوض بصيرورة شخص الخليفة ذاته دمية فى أيدى السلاطين والعلماء بدلاً من كونه قيادة إيجابية مؤثرة، ولأن السلاطين قد تولوا سدة الحكم بقوة السيف؛ لذا كانت شناعتهم وبشاعتهم عياناً بياناً للجميع، أما العلماء فلأنهم ارتدوا لباس الورع والتقوى؛ لذا أسدلوا الستار على نواياهم ومطامعهم الحقيقية، وبمرور الوقت أخذ يُنظر إليهم على أنهم الشراح المعتمدين للدين الإسلامي، ورويداً رويداً أخذت تعد أقوالهم وآثارهم ذات قداسة واعتبار، رغم أنه عندما قامت علاقة المسلمين المباشرة بالوحي الرباني لم تكن آثار الأسلاف قيوداً وأغلالاً لشيوخنا، ولا أدل على ذلك تاريخياً من أن سيدنا «عمر» ﵁ قام فى عهده بتغيير آثار رسول الله ﷺ ذاته دون تكلف أو عناء، فعلى سبيل المثال تبنى موقفاً مغايراً لسنة رسول الله ﷺ أو آثاره فى إطار توزيع أراضى الخراج أو المؤلفة قلوبهم.

كان الوحي الرباني بالنسبة لنا كعلامة الطريق التى ترشدنا

على طريق الهدى فى كل لحظة، فأين الدرس والتحليل الإبداعي لآثار النبي المرسل وأين التقليد الأعمى للاستدلال بأقوال «الشافعي» و«أبي يوسف»؟ وأين الشعور بالحاجة إلى تغيير آثار الرسول ﷺ نظراً لتغير الأوضاع والظروف وأين السعي المذموم للبحث عن غاية الشرع فى كتابات «الشامي» و«الكاساني»؟. فقد أضحى السلاطين السلاجقة - الذين أفسحوا لأنفسهم مجالاً فى النظام السياسي للإسلام بقوة الذراع - جزءاً من التاريخ فى الأيام المتعاقبة، كما عانقت الخلافة العباسية المضمحلة أيضاً نهايتها على أيدى المغول، غير أن المشيخة جعلت لها مكاناً فى المركز النظري للإسلام عبر مسميات مختلفة كعلماء الشرع، والمتصوفة، والخلفاء الروحانيين، والسيادة العرقية، لدرجة لم يمكن معها طي هذا النظام الأجنبي الدخيل حتى اليوم رغم آلاف المحاولات للتجديد والإصلاح. وساد اعتقاد بحيازة علماء الإسلام الآن كل الحق فى شرح وتفسير الدين، إذ أنهم ورثة علوم النبوة ولا تقل مكانتهم عن أنبياء بنو إسرائيل. كان هذا هو ذات الوضع عندما أخبر «ربائي أكيوا» بأحقية مفسري التلمود فى تفسير مفاهيم التوراه، وعندما أعرب علانية أن الله عندما سلّمنا التوراه فجأة، فإن تحديد مفاهيمها الآن يتوقف على رؤيتنا. وقد قام حصار من الشروح والتفاسير البشرية حول الوحي الرباني جراء ظهور هذه المشيخة الجديدة فى الدين الإسلامي، وأغلقت دفات القرآن الكريم على عموم البشر، ولأن هؤلاء العلماء الآن قد استأثروا بحق الاجتهاد والتفقه الذي ينتهي إلى أقوال جامدة للسلف

الصالح كمرجع نهائي، وليس إلى الوثيقة الخالدة للوحي، فظلت جل مساعيهم ألا يُفتح كتاب الهدى مرة أخرى، لأنه إن حدث ذلك فلن يكون تخوفاً بل عين الممكن أن يتزلزل بنيان الإسلام التاريخي، وتدخل ثقافة السلف وجلالهم العلمى دائرة الشك، وفوق ذلك كله تنهار المكانة المركزية الحالية لرجال الدين، فكيف يقطعون بأيديهم ذلك الغصن الذي تربعوا عليه.

إن كافة محاولات التجديد والإصلاح التى تمت منذ بضعة قرون ماضية ليست فى الحقيقة إلّا طلاء وتنضيراً للإسلام التاريخي المصطنع والمحرف، سواء مشورة التحلى باتساع الأفق فى الفقه الخلافي للأئمة الأربعة، أو الحديث عن سد الفجوة بين السنة والشيعة، أو بُشرى اكتشاف حيلة فقهية جديدة للخروج من التشدد والعنت بل التعذيب الفقهي لأقوال العلماء، فنحن لا نزال نسدل الستار على انحرافنا بحيل وأعذار شتى، ولا يجرؤ أحد أن يدعو بأعلى صوته إلى ترك تلك الانحرافات الفكرية والالتباسات المصطنعة ويشير إلى إنكم لا زلتم تُدَرِّسون فى مدارسكم منذ فترة طويلة القراءات المختلفة المتنوعة باسم علوم القرآن، وبحوث الناسخ والمنسوخ التي لا طائل من ورائها، وروايات سبب النزول المتعارضة، والتأويلات غير المفهومة للسبعة أحرف، والحكايات الواهية للفضائل والقوارع، والتجارة المكروهة للوفق والنقوش، فهذه كلها علومكم المصطنعة، وأبحاث اختلقها المتأخرون، ولم يكن الرعيل الأول للمسلمين يقيناً على علم بها.

فكم هو طعن كبير لتاريخ المسلمين الفكري أنه عندما ارتبطنا فى علاقة إبداعية بالوحي الرباني، وعندما كان كتاب الله يرشدنا فى كل أمر من أمور الحياة، وعندما كان أتباع محمد ﷺ يكتفون بتقديم النص القرآني لدعم موقفهم، لم تكن توجد آنذاك كتب الفقهاء، ولم يخطر ببال أحد استخدام مصطلحات كلامية كالفرض والواجب، والسنة والنفل، والمكروه والمباح، وغيرها لأداء التكاليف الشرعية، ولم يوجد عندنا جيل شقي لأحبار الإسلام على نحو ربائيي اليهود، يفكر فى هزيمة غاية الشرع بتقسيم عمل مكروه إلى مكروه كراهة تنزيه ومكروه كراهة تحريم، أو يعلّم تدبيراً لغصب مال اليتامى بحيلة التمليك، كما لم يوجد بيننا أحد يطلق عليه مولانا الشيخ، ولم يلقب أحد بألقاب تقديسية أمثال شيخ الإسلام أو حجة الإسلام أو فضيلة الشيخ أو سماحة الشيخ أو دامت بركاتهم أو شيخاً محض. الحقيقة أن هذه المسيرة التى بدأت من «الرسالة» للشافعي - والتى أسفرت فى النهاية عن تشكيل مؤسسة علماء الإسلام فى ضوء خلفية تقسيم الخلافة واضمحلالها - كانت بدعة كبرى للغاية فى الدين الإسلامي حولته من دين حيوي إلى دين جامد بلا روح. وإذا نظرنا إلى التاريخ الفكري والعلمي، واستطعنا فى نظرة جامعة تصور تقسيم الخلافة، واضمحلالها، والالتباسات الفكرية الناجمة فى تلك الأثناء، فلا يصعب علينا إدراك أن أية محاولة لتشكيل قالب موحد للإسلام فى الأيام القادمة لن تكلل بالنجاح طالما لم

نجترئ على النقد والتمحيص من جديد للتصور الرائج للعلوم الشرعية فى ضوء القرآن الكريم، فحتى اليوم لا تزال تستخدم المعايير المصطنعة والمحرفة للعلوم الشرعية فى تفسير وبيان الغاية القرآنية، فلا بد من أجل بداية جديدة أن يُولى القرآن الكريم زمام النقاش والنقد الآن بشكل تام.

أقول هذا لأن المنهج الكلامي سنحت له فرصة التدخل فى تدوين أصول الدين وأصول الفقه لدينا منذ العصور الأولى على نحو لم يستطع معه كبار مفكرينا أيضاً تقدير مضاره فى هذه البيئة من النقاش والجدال، فبإيعاز من «عبد الرحمن المهدي» - الذى كان يريد ضبط الأصول والقواعد العلمية والموضوعية للاستنباط الشرعي - شمر «الشافعي» عن ساعدي الجد لتأليف «الرسالة»، ومن سوء الطالع أن ظلت الكتب التي أتت بعدها تكتب كتوسعة لها بدلاً من تنقيح منهجها ونقدها، وهكذا تبوأت «الرسالة» تدريجياً مكانة قدسية بدلاً من كونها محاولة علمية فقط، بل يمكن القول أن الريادة فى رقي وتطور الفقه فى الأزمان المتعاقبة ظلت فى أيدى صاحب «الرسالة». وتمعن قليلاً! فإن «واصل بن عطاء» - الذى كان يعد مخذولاً بسبب توجهاته الاعتزالية فى عهده - وضع أصولاً أربعة للتوصل إلى الحق، أولاً النظر إلى ما يقول القرآن بشأن أمر ما، ثم البحث عن نظائره فى السنة ثانياً، ثم أخذ الإجماع فى الاعتبار ثالثاً، فإذا لم يكن هناك إرشاد واضح جراء هذه الثلاثة فيستعان بالقياس أي الاجتهاد. وبعد ذلك أخذ يُنظر إلى أصول «واصل» الأربعة

هذه كمنهج عظيم الشأن، حتى أن هذه الأصول الأربعة صارت مصادر للتشريع، ولعل «واصل» لا يمكن اتهامه لأنه أنزل القرآن الكريم المصدر الأبدي الخالد إلى مرتبة المصادر الظنية الثلاثة الأخرى، لكن فيما بعد صار كل مصدر منها بمنزلة دعامة مستقلة بذاتها. وقد أخذ بعض المفسرين يقولون من أجل زيادة توقير الإجماع أن عصمة وسلامة القرآن الكريم متوقفة على الإجماع، لأن «عبد الله بن مسعود» لم يكن يعد المعوذتين ضمن سور القرآن الكريم، لكنه عدل عن موقفه هذا بسبب الإجماع، وعليه فإن وجود هاتين السورتين فى القرآن الكريم اليوم طبقاً لوجهة النظر هذه إنما هو بسبب الإجماع، رغم أنه بقليل من البحث والتدقيق يمكن كشف حقيقة تلك الروايات، لكن هيبة هذه المصادر الفقهية الأربعة تستحوذ على المفسرين لدرجة أنه جراء تأييدها تنفلت من أيديهم فى بعض الأحيان عقيدة عصمة القرآن ذاته، ولا يخفى علينا أيضاً أنه لم يحدد منذ عصر الشافعي حتى اليوم المراد من الإجماع، هل إجماع أهل العلم فقط أم عامة الناس أيضاً؟ وهل إجماع العلماء والعامة لأي مصر أم المراد منه إجماع كافة البلدان والأمصار؟ وهل يكون إجماع مدينة حجة لأخرى، وهل سيعد إجماع عصر معتبراً لآخر أم لا؟ يبقى البتّ فى هذه الأمور الآن، ولكننا لا نعلم أن إجماعاً تم بين العلماء والفقهاء بشأن أية مسألة أم لا. فعندما يصل الحال فى الصلوات الخمس المكتوبة إلى أن القراءة فرض فى الركعة الأولى فقط عند «أبي حنيفة»، بينما

فرض فى جميع الركعات عند «الشافعي»، وفرض فى الركعات الثلاث الأُوَل عند «مالك»، وواجبة فى الركعة الأولى فقط عند «الحسن البصري»، فإذا لم ينعقد الإجماع حتى اليوم بشأن الصلاة المكتوبة، فكيف تحِق دعوى الإجماع بشأن الأمور الأخرى، يُقدِّرُ ذلك العاقلون بأنفسهم.

فلو يكون منهج التفسير والتفقه هذا بمثابة معترك علمي فقط، لظلت احتمالات تنقيحه بل تطهيره وإصلاحه باقية، لكن لسوء الطالع أن صار بمثابة أصول الفقه، وصار يُعتقد أنه يلزم لكل أحد الآن النظر فيما يقول الإجماع والآثار بشأن المسألة المذكورة علاوة على النص القرآني بشأنها، وإذا كانت الظاهرية وعلماء الشيعة أنكروا القياس، فإنهم أفسحوا المجال لمجتهد حيّ تحت مسميات أخرى مختلفة، وهذا هو ذات الحال بالنسبة لمصطلحي «الاستحسان» و«المصالح المرسلة» أيضاً، واللذان يعدان توسعة للقياس والاجتهاد فى الحقيقة. وعليه فقد أوصدت هذه العملية المعقدة للبحث عن غاية الوحي أبواب الوحي الرباني ليس فقط على العامة بل على العلماء والخواص أيضاً.

الخلافة الروحانية
أو الإرشاد والأتباع

لقد ضلت الأمة طريقها نتيجة الحصار الذي أقامه الفقهاء حول الوحي الإلهي، وبدأت شريعة المسلمين وحياتهم تدور في فلك آراء الناس المتعارضة والمتضاربة، ولم يعد أحد يهتم بما يقوله كتاب الله قدر اهتمامه بما يقوله مذهبه، ولما صار فجأة لبعض الناس سلطة على رقاب بعضهم، كان من الطبيعي ظهور آلهة وأحبار روحية صغيرة في الإسلام بمسميات جديدة، كما كان الوضع عندما قامت البابوية قبل البعثة النبوية، والتي مع مرور الوقت بدأ رجال الكنيسة فيها يقدمون صكوك الغفران وصكوك الجنة والنار، فمن كان يريد أن يتدبر أمر نجاته بصورة مطمئنة فعليه بعطية سخية قدر المستطاع.

إن ما يدعو إلى الحيرة هو أن جوهر دعوة النبي - الذي نعتز به - كانت تحرير رقاب العباد من أسر الزعامات المصطنعة ووصلهم بالله تعالى مباشرة، فكيف - بعد مضي قرون عديدة - تبلورت فكرة بابوية جديدة في دين الله باسم الخلافة الروحية

والإرشاد والأتباع. إن بداية التصوف في الحقيقة لم تكن من أجل استغلال سياسي للدين، وإنما كظاهرة احتجاجية ضد المادية الجامحة، ثم استخدمه الفاطميون في صورة حركة بعد صبه في قالبهم من أجل تقوية دعوتهم السياسية، فقد انتشر الدعاة الإسماعيليون في مختلف البلدان والأمصار لتنظيم حركة سرية في عباءة أولياء الله، ولك أن تقدر ما كان من أثر بالغ لهذه الحركة، حيث أقيمت ولاية للإسماعيلية في منطقة نائية مثل الملتان في عهد الفاطميين ذاته، وهكذا ظلت الملتان وحتى قبل هجوم محمود الغزنوي تقوم بدور المقر الرئيس للحركة الصوفية في شبه القارة الهندية، ولهذا الأمر شواهد تاريخية تفيد أن معين الدين ششتي، وقطب الدين بختيار كاكي، وأولياء آخرين كانوا كثيراً ما يترددون على هذه الولاية الصغيرة للإسماعيلية أمثال عثمان الهاروني، وبهاء الدين زكريا الملتاني، ونظام الدين أولياء، وعلي الهجويري، والبابا الفريد، وشهباز قلندر، وكل هؤلاء في الحقيقة كانوا دعاة إسماعيليين أجلاء وأصحاب همم عالية، أُسند إليهم مهمة سرية لتقوية وزيادة رقعة ولاية الإسماعيليين. ومما لا شك فيه أن الدعاة الفاطميين قد أدركوا إلى حد كبير تخلفهم السياسي بسبب إقامة الخلافة الباطنية، كما لا يمكن إنكار أنه بهممهم العالية وطريقة عملهم السرية وصلت دعوة الإسلام لتلك المناطق في الوقت الذي لم تكن فيه الأوضاع السياسية فقط غير مؤاتية، وإنما أيضاً غير قابلة لنشر الدعوة، إلّا أن تصورالإسلام الذي وصل للناس عن طريق

هؤلاء المتصوفة كان مصبوغاً بمغالاة الإسماعلية القائم على تفضيل سيدنا علي والخمسة الأطهار، ووحدت الوجود، وتعبيرات نظرة المرشد العلوي. إن معظم أضرحة الصوفية وزواياهم التي صارت ملاذاً للخلق منذ قرون، هى في الحقيقة مراكز سرية للدعوة الإسماعيلية، حتى أن معظم مصطلحات التصوف مثل: الشيخ، المريد، الشريعة، الطريقة، الباطن والظاهر، وغيرها كانت من وضع دعاة الاسماعيلية.

هذا وقد كان الخلفاء العباسيون على دراية بالانتشار المتزايد لأولياء الله، وأغلب الظن أن سلسلة الطريقة النقشبنديه - التي تنتسب لأبي بكر الصديق بدلاً من علي رضي الله عنه - قد حظيت بدعم وتأييد العباسيين، كما أن المرجعية الفاطمية كانت ظاهرة في كتابات وخطب ونشاطات غالبية الشيوخ في تاريخنا ممن يلقبون أنفسهم بـ محي الدين، أمثال: ابن العربي، أوعبد القادر الجيلاني. ولمولانا الرومي مكانة كبيرة في نسق الدعوة الإسماعيلية، ورغم ما له مكانة علمية عظيمة فقد جعل نفسه من أتباع إمام الإسماعلية شمس الدين (شمس تبريز)، أما الشهرستاني فظاهرياً كان يُنظر إليه على أنه عالم جليل القدر في الفكر السني، إلّا أنه داخلياً قد حاز على منصب داعي الدعاة في تنظيم الدعوة الإسماعيلية، إن كتابات عباقرة أمثال النسفي، والشبستري، وسعدي والعطار ممن لعبوا دوراً كبيراً في تشكيل العقلية السنية المسلمة تدل على علاقة خفية بالدعوة الإسماعيلية، وبهذا فإن دعاة الإسماعيلية قد شكلوا بنجاح فائق

حركة عالمية تحت غطاء الخلافة الروحية، ورغم أنه لم تسنح لهم الفرصة إقامة دولة في شبه القارة الهندية بعد سقوط الملتان، إلّا أن هؤلاء الخلفاء الروحيين ونوابهم قد أخضعوا عدداً كبيراً من سكان المسلمين في مختلف مناطق العالم الإسلامي لنفوذهم.

ومن سيصدق اليوم أن عمل الخلافة الروحية والإرشاد والأتباع هذا ما هو إلّا بقايا فتات عفن لحركة سياسية لا صلة لها بالوحي الإلهي وثقافة الإسلام الفطرية، فالإسلام يخالف هذا التصور من أساسه، إذ كيف يفوض الإنسان أناس مثله في قضية حرجة للغاية متعلقة بنجاته، أو أن يكون هناك شخص في صورة موفد سماوي يحول بين الإنسان وربه – لقد ظلت الحركة الفاطمية تختلق أسباباً للالتباسات الفكرية المختلفة حتى بعد تشرذمها، وهى التي كانت من قبل تدعو إلى الخلافة استناداً إلى تفوق عنصري، وحتى اليوم فإن شخصية آغا خان بالنسبة إلى الإسماعيليين النزاريين هو إمام يتجلى فيه الله، وعلى الجانب الآخر فإن بقية جماعة الإسماعيلية المستعلية تحت إمرة دعاة مختلفين منشغلين في تجارة رابحة تهبهم النجاة عوضاً عن حق الإمام والنذور. إن سلسلة الصوفية هذه التي تعتبر ظاهرياً حارس السيادة الروحية للإسلام السني تُظهر لأولي أمرهم «فيض وبركات» صاحب القبر، وهذا الحال قد قسم الأمة – منذ قرون – إلى طرق ومذاهب مختلفة. إن ما يدعو إلى الحيرة هو أن هؤلاء الأشخاص الذين لم يأمرهم الله ولا رسوله بالهيمنة

الروحية على الأمة، حيث لا يوجد هناك دليل عقلي ولا نص قرآني لإسعاد الناس بالبيعة وتوزيع الهبات، فبأي ظلم يمارسون هذا العمل المكروه في لباس الورع والتقوى.

إن أول شيء يجب فهمه هو أن البيعة في الحياة الاجتماعية للمسلمين تكون فقط لأميرالمؤمنين؛ أي الخليفة، ويجب أن تكون للخلافة قوة نافذة، فقد تقلد الخلفاء الراشدون بعد رسول الله ﷺ منصب أولي الأمر خلفاً له، أما أن يأخذ صوفي من فلان البيعة أو أن يُنصِّب فلان فلاناً خليفة له، أو أن يتفضل عليه بخلعة، أو يمكنه من ولاية دهلي أو أجمير، فهذا كله لغو وعبث، لا صلة له بالإسلام، ومن سوء الحظ أن بعض علمائنا الأجلاء - وأكثرهم أسير ورهن لهذه السلاسل الضالة - منحوا هذه الخلافة الخيالية قيمة، بل ساهموا واشتركوا بأنفسهم في هذا العمل الضال، لهذا يصعب على عامة المسلمين اليوم فهم أن عملَا مذموماً مثل الإرشاد والأتباع، وتجارة القبور المربحة، ودعاوي أن لصاحب القبر تصرفات روحية، كلها أمور لا يمكن الاستدلا عليها من الشرع، فكيف لنا أن نفهم أن إنساناً - سواء كان مكتمل الولاية أم لا - تحظى روحه بعد موته بثلاث أو أربعة قرون بتصرفات خارقة، كما هو الاعتقاد عند شاه ولي الله الدهلوي.

إنه من الصعب عليّ - باعتباري أحد طلاب القرآن الكريم - فهم أن ظهور سلاسل مختلفة للتصوف هو نظام سماوي، أو أن تنتسب سلسلة ما للصديقية، وأخرى للفاروقية، وأخرى للعلوية،

أو أن تَشْرف سلسلة بامتزاجها وانصهارها مع مختلف تلك الأنساب، فلا نعلم من أين حصل السيد شاه على هذه الأمور، وما هي وسيلة اتصاله بالملأ الأعلى، نعم، من الضروري علينا أن نعرف أنه طالما لم يتم القضاء على هذه الأفكار العبثية الباطلة غير القرآنية، وما لم تتحرر رقاب السذج من وطأة المشيخة، فإن الأمة ستظل مقسمة إلى جماعات ذات أنساب متفرقة، وستبقى منقطعة الصلة بالوحي الإلهي.

الهيمنة العنصرية

إن الإسلام يعارض التفاخر والتباهي الجنسي معارضة شديدة، فليس هناك أهمية على الإطلاق في المجتمع الإسلامي في أن يكون الشخص عربياً أوعجمياً، ينتمي لأسرة مرموقة ويحظى بفضل ومكانة إجتماعية أم لا، فمقياس التميز والتفرد في الإسلام هو التقوى فقط، فالبيان القرآني ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ قد قضى وإلى الأبد على كل مقاييس الشرف والفضل المصطنعة، غير أن هذه العصبية الجاهلية التي ظهرت في البداية بمسميات كالقرشي، والطالبي، والعباسي، قد اُعتبرت آلة مؤثرة للخلافة والسيادة، حتى انتهى الأمر إلى أن مدعو الخلافة الفاطمية قرروا تفضيل آل فاطمة على بقية آل البيت، ومن ثم ظهرت أسرة روحانية تضم فاطمة رضي الله عنها وزوجها علي رضي الله عنه وابنيهما الحسن والحسين رضي الله عنهما، واعتبرت هذه الأسرة مع رسول الله ذات قداسة باسم الخمسة الأطهار، كما هو الحال عند المسيحيين في تقديسهم للأسرة السماوية المتمثلة في التثليث (trinity).

واليوم توجد للسادات (أبناء سيدنا علي والسيدة فاطمة) سلاسل مختلفة منتسبة لرسول الله ﷺ، تدعم سيطرة وتواصل المشيخية في الدين استناداً إلى هذا، والوقع أن دعواهم لم تثبت بأي دليل عقلي أو نقلي أو حتى تاريخي. لقد كانت مظاهر التفاخر والتباهي العنصري موجودة عند العرب مثل الأمم الأخرى، ولم يكن الأمر ليقف عند العرب، فكل من تسلط على رقاب الناس بذريعة المشيخية أو الملكية على مدار التاريخ الإنساني أثبت لنفسه أنه ركن ركين لأسرة سماوية. وعندما بدأ يُنظر إلى قضية الخلافة من منظور القرابة لا من منظور الأهلية والتقوى، حظيت مثل هذه القضايا بأهمية كبيرة إذ من هو الأَحَقّ بخلافة النبي؟. والمشكلة كانت في أن رسول الله ﷺ لم يترك أولاداً ذكوراً، وقد أوضحت آيات القرآن الكريم صراحة هذه الحقيقة، وهو أن محمد ﷺ لم يترك في الدنيا سلسلة نسبية: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وتجمع المصادر التاريخية على أن من يطلقون على أنفسهم السادات في أنحاء شتى من العالم يمكن أن يكونوا هاشميين أو مطلبيين، أو أنهم ينتمون إلى أسرة أبي طالب، وأبي جهل والعباس وحمزة، وليس إلى رسول الله ﷺ.

إنه لمن الضروري فهم متى وكيف ظهر مسار الهيمنة العنصرية في الإسلام، فأحد الأئمة الأربعة للإسلام السني وهو الشافعي يدعي النسب القرشي، وقد أعرب بوضوح عن علو

منزلته في أسفار رحلته، إلّا أن النسب القرشي آنذاك لم يكن يعني النسب المباشر برسول الله ﷺ، ثم إن نيل الحركة الثورية لمحمد بن حنفية بن علي غير الفاطمي، القبول دون النسب الفاطمي يدل على أن فلسفة الخمسة الأطهار، أو ادعاء الانتساب المباشر برسول الله مدينة بالفضل إلى الدعوة السرية لدعاة الإسماعيلية، فالمصادرالإسماعيلية - التي تأثرت بها مدارس الشيعة هي الأخرى - ترى أن السيدة فاطمة شخصية أسطورية، وتُقر بأنها بكر وبتول رغم إنجابها للحسن والحسين، والفكرة السائدة بينهم هو أن النطفة التي استخدمت في خلق الأئمة لا علاقة لها بمراحل الخلق البشرية العادية.

ويعتقد الإسماعيليون في أن أبا طالب كان بمثابة أمين سر رسول الله، لذا عندما بلغ علي رضي الله عنه سن البلوغ انتقلت سلسلة الإمامة عبره إلى ذريته، وبهذه الحيثية ترتبط علاقة الحسن والحسين بالأسرة السماوية للأئمة في النظام التكويني للإسماعلية، ومن ثم منحت الدعوة السرية لهذه العقيدة - تدريجياً - السيدة فاطمة وأسرة الخمسة الأطهار الافتراضية مركزية في الإسلام، وحتى الآن فإن كل دعاوي السلسلة النسبية ترتكز على أساس الأولاد الذكور، إلّا أن تكوين صورة أسطورية للسيدة فاطمة قد أرسى دعائم سلسلة نسبية من جهة الأم بدلاً من الأب، وقد كانت هذه جراءة كبيرة ممتزجة بخيانة تاريخية، فالسلسلة النسبية المنقطعة لرسول الله والتي يشهد عليها القرآن قد استأنفت من جديد في الأمة، وبهذه الطريقة

وبالأسانيد الكاذبة للسادات أحكمت المشيخية المذمومة من جديد قبضتها على رقاب الأمة.

وما يستعصي على الفهم أيضاً هو ما الدليل على خروج بنات الرسول الأخريات وأولادهم من هذه الأسرة السماوية الافتراضية وحرمانهم من هذا العز والشرف؟، فزينب ﵂ ابنة الرسول الكبرى، وابنها على بن أبي العاص الذي كان يمتطي ناقة النبي ﷺ في فتح مكة، واستشهد فيما بعد في معركة اليرموك، ورقية وأم كلثوم ﵄ توفيتا بالمدينة، وقد شاركا على السواء في رسالة أبيهما ﷺ، فلماذا لم يعتبر الدعاة السياسيون أن من حق أولادهن نيل هذا العز والشرف؟. فلم يرد ذكر أولادهن في صفحات التاريخ ككثير من المسلمين ذوي النسب القرشي، فلو أن الدعوة الإسماعيلية لم تستخدم السيدة فاطمة ﵂ كلبنة لسياستها، لما وجد التصور المبتدع للخمسة الأطهار، وما أطلق جيش المدعين الفاتح نسب مصطنع برسول الله، ولقبوا أنفسهم بالسيد، ومن المثير أن ظهور علو منزلة السادات على المستوى الاجتماعي حدث في عهد دولة البويهيين، حيث راج استخدام لفظ سادات للشريف، كالشرافة الموجود في أسماء الشريف الرضي والشريف المرتضى، وفيما بعد بدأ يطلق لفظ شريف على كل شيئ له علاقة بالسادات حتى فيما يتعلق بمسكنهم ومولدهم، رغم أن هذه الأماكن ذاتها لم يكن يوجد بها شائبة أو أي أمر يدل على شرفها أو ارتباطها بنسب الرسول ﷺ.

أما فيما يخص سادات الهند وباكستان فالتاريخ يشهد بأن

غالبيتهم من أولاد محمد الكابلي، الذي كان من نسل سلسلة أولاد محمد بن حنفية أي ابن علي غير الفاطمي، وليس من سلسلة الحسنية أو الحسينية، وقد اضطر محمد الكابلي بسبب خروجه على الحاكم إلى اختيار المكوث في كابل خشية على نفسه، حيث تزوج هناك بإبنة حاكم كابل غير المسلم، فلا توجد حقيقة - في ضوء التاريخ والعقل والنقل - أوضح من هذه لمن يدعون كذباً نسبهم برسول الله، وفيما يتعلق بمتصوفي الهند وباكستان الذين كانوا يقدمون إلى الهند في زمانهم متخفيين في صورة دعاة إسماعليين، حيث كانوا فقط دعاة، أمرهم أئمة الإسماعيلية بالدعوة، ولم يكن لهم في الحقيقة أي صلة نسبية بالأئمة، ويقر هذه الحقيقة اليوم الداعي الحر في حلقات البوهرة الداودية، هذا وقد لعب الدعاة الفاطميون دوراً أساسياً في نشر معلومات مبالغ فيها تخص ذرية السيدة فاطمة رضي الله عنها، مثال ذلك ابن عربي الذي ظل يقحم فكره في فكر العقيدة السنية الراسخة، ودافع بقوة في الفتوحات الإسلامية عن فكرة أن الله تعالى وعد رسوله بغفران ما تقدم من ذبه وما تأخر، وأن هذا الوعد يشمل أولاد السيدة فاطمة وكل من ينتسب إليهم إلى يوم القيامة، وانتشار روايات تقول بأن كبائر الذنوب تغتفر بحسن السلوك مع آل فاطمة ليس بالقليل بين المسلمين.

لي خمسة أطفئ بها حر الوباء الحاطمة

المصطفى والمرتضى وابناهما والفاطمة

إن هذه الأنشودة الإسماعيلية الأصل رائجة ومنتشرة بكثرة

بين عامة مسلمي السنة، ومن هنا يمكن استنتاج أن ما قيل عن انقطاع السلسلة النسبية لرسول الله من أجل الأفضلية، وصدقه القرآن المجيد، قد حطمته الدعوة السرية الفاطمية بدهاء ومكر كبيرين، وهكذا قُضي على حرية الإسلام الفكرية على أيدي المشيخية النسبية المصطنعة.

التفسير الطائفي
للسنة النبوية

إن جماعات المسلمين المختلفة والتي تحتفظ - فيما بينها - بوجود نظري وفكري مستقل كل عن الآخر، لديها ذخائرها الخاصة المستقلة التي تحوي سنة الرسول ﷺ، وعلى هذا فكتاب فرقة لا قيمة له عند فرقة أخرى، سواء وجدت فيه أحاديث الرسول أم لا، فالشيعة لا يعيرون كتب السنة إهتماماً إلّا إذا كانت تتفق مع آراءهم، وعلى الجانب الآخر يرى علماء السنة أن المؤلفات الشيعية غير جديرة بالاهتمام، وكل جماعة تصر على أن ما لديها هو سنة رسول الله، وهي فقط الجديرة بالحجة، هذا الوضع أدى إلى ظهور الشيعة والسنة والإسماعيلية والأباضية وجماعات أخرى لا حصر لها، وبما أن هذه التكتلات قد نمت وترعرت في ظل السنة، لذا فليس من السهل هدم أسس الفرقة والتعصب هذه.

إن ما يدعو إلى الحيرة هو أن عاشقي سنة الرسول هؤلاء لم يدركوا حقيقة أن التسليم والانقياد لحديث الرسول شرط من

شروط الإيمان باعتبارنا مسلمين أيا كانت الجماعة التي تحفظ حديث رسول الله، فكيف لنا أن نرد حديثا لمجرد أنه لا يوجد في كتب الجماعة التي ننتمي إليها، فإن وجدت السنة في تلك الكتب كما هو شائع، فإن كل فرق الأمة على شتى المستويات ضمن قائمة منكري الحديث، إذا أنهم يتجنبون وضع أسس لفكرهم وعملهم على حديث لرسول الله موجود في كتب الفرق الأخرى، أما المسلم العادي المضطرب فتقلقه الفُرْقة، ويطلب وحدة الأمة، لكنه عندما يرى دعائم الفُرْقة بين المسلمين تقوم على أساس الدين والسنة، فإن همته تفتر، وسريعاً يتوصل إلى نتيجة مفادها أنه إذا كان هذا الأمر فعلياً مرده الدين، وإذا كانت هناك روايات وأقوال فعلية للرسول متناقضة ومتضاربة في تلك الكتب، فإن هذه الفرق لا يمكن أن تتوحد إلى يوم القيامة، وأن عملية التقسيم التي بدأت في الأمة منذ القرن الرابع الهجري، لن تستطيع قوة في العالم تحجيمها.

فهل التشتت الفكري للأمة الإسلامية والحرب الأهلية الدائرة بين مختلف فرقها هو مستقبلها؟، وهل من المستحيل أن تتحول هذه الأمة إلى جسد واحد من جديد؟، لقد ظل مفكري الأمة طوال قرون مضت يستنكرون هذا الوضع، وقد سُدّت الطرق أمامهم لامتزاج الأساس الديني بالتشتت الفكري للفرق، واستسلموا لهذا الوضع المؤلم، فصار يُعتقد الآن بشكل عام أنه علينا أن نتعايش مع هذا التناقض والانقسام المتبادل، وأنه من غير الممكن إعادة تشكيل قالب الأمة

الموحد، والنتيجة هي أن مؤشر رسمنا البياني يتراجع يوم بعد يوم، وكل مخطط لبداية جديدة يقع فريسة للخلاف الداخلي أو قل المؤامرات المتبادلة.

إنه لمن الضروري للخروج من هذا الوضع المتأزم، أن نسعى جاهدين لفهم ذلك العمل التاريخي، الذي كان من نتائجه أن ظهر التصور السائد عن السنة النبوية، الذي قسّم الأمة إلى جماعات متحاربة بدلاً من جعلها أمة قوية ومتحدة، فلو أننا استطعنا أن نفهم هذه النقطة، وهو أن التصور السائد عن السنة النبوية وتقسيمها إلى سني وشيعي ما هو إلّا نتاج عهد سياسي واجتماعي خاص، فعندما أبتلي المسلمون بلعنة الحرب الأهلية المتبادلة والتحزب السياسي، وعندما ظهر في العالم الإسلامي ثلاثة دول للخلافة في وقت واحد، وعندما تهيئت بيئة مناسبة إبان تدهور الخلافة لصالح إمارة آل البويهيين وسلطنة السلجوقيين ومشيخية العلماء وأهل التصوف، ولكن وقبل المضي قدماً في هذا الصدد سيكون من المناسب أن نتدبر بعض أهم القضايا.

يوجد فيما يتعلق بالسنة النبوية حديثين مختلفين عند الشيعة والسنة، بسببهما اختلف طريقيهما، فطبقاً للحديث السني المنسوب إلى رسول الله أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله». ويقول الشيعة إن المراد بالشيئين هنا هما كتاب الله وعترة أهل بيته. رأيت كيف أنه لا اختلاف بين الفريقين في المراد الأول، فكلامهما يقبل أمر

الرسول في التمسك بالقرأن، ولكن الخلاف على المراد الثاني، فهل ما أمر الرسول به هو السنة أم العترة؟. هذا هو الأمر الخطير الذي قسّم الأمة إلى جماعتين، لذا تحتاج هذه النقطة إلى تفكير وتمحيص متأني، ولفهم هذه الإشكالية يمكن أن نسأل كلتا الجماعتين سؤالاً في ذات الوقت، لو أن الرسول قد أمر حقاً بالتمسك بالسنة أو بالعترة، فما كان مراده من ذلك؟. فبذكر كتاب الله يتبادر إلى العقل على الفور كتاب معين، وهو (القرآن الكريم)، لكن فيما يتعلق بالسنة نجد إما كتب أهل السنة المتداولة والمسماة اليوم بالصحاح الستة، وإما المصادر المعتمدة عند الشيعة لعترة آل البيت ككتب الكليني وابن بابوية واستبصار الطوسي ونهج البلاغة، كل هذه الكتب لم يكن مطلقاً للمسلمين في عهد الرسول علم بها، فقد ظهرت كل كتب الأحاديث والروايات هذه في القرنين الثالث والرابع الهجري، فبأي الكتب كان يشتغل المسلمون في عهد الرسول للبحث عن السنة أو العترة؟.

إن الكتب التي نعتبرها اليوم المصادر الخالدة للسنة أو العترة، والتي عليها تقوم بنية التحزب الديني لم تكن قد ظهرت في ذلك الوقت، فإلى متى تبقى دعوى أن السنة تتجلى في الصحاح الستة، وأن المراد بالعترة الكتب الأربعة للشيعة، إذن فبماذا حقق مسلمو الرعيل الأول مرادهم في الوقت الذي لم تكن فيه كتب السنة والعترة موجودة؟ - إن هذا الأمر أيضاً جدير بالبحث - وبغض النظرعن قوة هذه الرواية فالحقيقة أنهم لم

يشغلوا عقولهم بكتب الصحاح الستة بإسم السنة، كما لم تنبهر أعينهم في البحث عن عترة آل البيت في كتب الشيعة الأربعة، بل إن الحقيقة هي أن سلسلة آل البيت كانت لا زالت تنمو، فمسلموا الرعيل الأول لم يكونوا على علم باسماء الأئمة الاثني عشر ولا بآثارهم وأحكامهم، ولم ينالوا شرف الاشتغال بأصح الكتب بعد كتاب الله، ومن ثم يمكن بسهولة فهم أنه أياً كان المراد بالسنة أو العترة، فإنه لم يكن المقصود مطلقاً الإشارة إلى تلك الكتب.

ولنبحث هذه القضية الخطيرة والحساسة من جانب آخر، فلو أن للسنة أو العترة حقاً نفس أهمية القرآن في الدين، فلما لم يترك الرسول وراءه كتب موثوق فيها كالقرآن، فلو أن ذلك حدث، لما قامت من الأساس قواعد لهذه الكراهية الدينية المتبادلة وخطورة لهذه الخلافات، فمن أعلم من الله ورسوله بأن في الاختلاف كل الخسران وفي الاتحاد قوة، والقرآن يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، كما يرشدنا إلى ألا نسير في طريق الاختلاف: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾. ثم في النهاية كيف يمكن للرسول الذي التزم بحفظ القرآن وكتابته في حياته، واهتم أن يتركه لنا في صورة كتاب كامل، أن لا يعير المصدر الثاني أدنى اهتمام من الأساس، بل إن كبار صحابة النبي ﷺ وخلفاءهم أيضاً لم يهتموا بكتابة وتدوين أقوال الرسول في أي كتاب، علينا أن نمعن النظر أيضاً في أن كل هذه الكتب التي دونها محدثي القرنين الثالث والرابع لا تستطع الإلمام الكامل

بأيام وليال ثلاثة وعشرين سنة نبوية، رغم أنها في أعلى درجات الصحة والثقة، ولا يستطيع مدوني الأحاديث أن يزعموا أنهم جمعوا في هذه الكتب تسجيلاً لكل أقوال وأفعال الرسول ﷺ، إذن فماذا يفهم من أن الأمة اليوم لا يوجد لديها تسجيل كامل يحوي أقوال الرسول وكل تفاصيل أيام وليال ثلاثة وعشرين سنة نبوية؟.

وإذا كان الأمر كذالك، فأين سيذهب المتمسكون بالسنة عند البحث عن السنة الكاملة؟ والأمر ذاته مع تفسير إشكالية «عترتي آل بيتي»، حيث إن للجماعات الإسلامية المختلفة تصورات متعددة عن آل البيت، فعند البعض لفظ آل البيت ينحصر فقط في الخمسة الأطهار، والبعض يرى أنهم الأئمة السبعة أو الاثني عشر، والبعض يعتقد في تواصل هذه السلسلة إلى اليوم، وطبقاً لتأويل البعض فإن آل العباس ضمن آل البيت استناداً إلى حديث الكساء، والبعض يرى أن أزواج النبي ﷺ أيضاً ضمن آل البيت، والبعض يرى أن الأمة الإسلامية بأسرها ضمن آل البيت باعتبارهم حاملين للرسالة، وكأن العترة كالسنة مفهموم مبهم لا يمكن أن تحدد حدوده الأربعة.

فهذا الاختلاف بين السنة والعترة وبين التأويلات المتناقضة حول أسوة الرسول، التي مزقت الأمة إلى فرق مختلفة منذ ما يقرب من ألف سنة، حيث بدأت في صورتها الأولى في القرنين الثالث والرابع الهجري، لكنها استغرقت قروناً عدة لنيل الثقة والقداسة، إلى أن ساد تصور أن آثار العلم الذي ضمته هذه

المؤلفات البشرية فوق كل الشبهات والشكوك، وأن مجرد مناقشته بشكل نقدي لا يزلزل فقط قواعد منهجنا وجماعتنا، وإنما يضيع إيماننا أيضاً بترك السنة.

إن أول ما يجب فهمه في هذا الصدد هو أن السنة بمعنى سنة الرسول ليس مصطلحاً قرآنياً، فالقرآن يوجد فيه ذكر لسنة الله، لكن لا يوجد فيه ذكر لمصطلح سنة الرسول، نعم! يلقن المؤمنون أن لهم أسوة حسنة في رسول الله، ولا شك في أن شخصية الرسول بكل أبعادها - لنا كمسلمين - جديرة بالأتباع والتقليد، ولا يسعنا إذا ما ورد قول لرسول الله أمامنا إلّا أن ننصاع له وننقاد، وإلّا فالسم القاتل لإيماننا أن نظهر أدنى تردد في العمل به، ومع ذلك فحبنا للرسول يدفعنا إلى أن نتعامل بحذر وحيطة شديدين فيما يتعلق بصحة قول رسول الله، حتى لا يحدث أن نؤمن بقول لرسول الله ثم يُشك في أصله بعد ذلك، فإذا حدث ذلك لا قدر الله فسيكون مدعاة للكذب والافتراء على رسول الله، وفي ذلك يقول ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

إن كل هذه المحاولات البشرية التي استخدمت البصيرة والعقل البشري في عملية الجمع والتدوين، وكذا أعملت المعايير البشرية في التدقيق والتنقيح، والتي بسببها وقع الخلاف بين المحدثين فيما يتعلق بالرواية والرواة، لا يمكنها ادعاء الموثوقية الكاملة، لهذا لا يوجد سبب يجعل تلك الكتب سنية كانت أم شيعية تحظى بالحجية والقدسية في حلقاتهم،

فسواء كان الإمام البخاري أو الإمام مسلم أو كان الكليني أو ابن بابوية فإن الله لم يأمرهم بجمع وتدوين السنة، كما لم يطالبنا الله بأن نؤمن بهذه الجهود العلمية البشرية كإيماننا بالكتب السماوية، ثم إن شيئاً لم يكلفنا الله به، ما هي الحاجة في أن نقره جزءاً من الدين؟ فلو أن هذه الجهود البشرية للجمع والتدوين قد تمت حقاً تحت مظلة وتدبير إلهي، ولو أنها صدقاً تعبر عن الوحي، لما وجد بينها هذا القدر من التعارض، والآية القرآنية تؤكد هذا: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً».

إن السنة عمل مستمر، وفي كل مجتمع هناك بعض الروايات - تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - تقوى مع مرور الوقت، في حين أنها في حاجة إلى أن تُعرض للنقاش من جديد، نظراً لتغير الأوضاع والزمان والمكان، وعلى العكس من ذلك فإن الأسوة بالرسول ﷺ تشير إلى رسالة خالدة لا يمكن أن تتبدل غاياتها وأهدافها، فمسلموا الرعيل الأول كانوا أصحاب رؤية إبداعية فيما يتعلق بسنة الرسول ﷺ، مثال على ذلك عندما حاول عمر رضي الله عنه العمل بروح العدل بدلاً من الأتباع الظاهري لسنة الرسول في قضية الأراضي الخراجية، أو عندما اتخذ موقفاً مغايراً لموقف النبي ﷺ فيما يتعلق بالمؤلفة قلوبهم، أو عندما عطل العمل بحد قطع اليد في زمن القحط، حيث كان يرى أن هذه الخطوات أكثر اتساقاً مع العدل في الأحوال المتغيرة، فلو أن السنة هي التشبه بالرسول، ومواقفه العملية، فهي إذن

عمل نامي ومتواصل، يتغير شكله وصورته بتغير الظروف والمكان، ومن يمكن أن يكون متبع لسنته ﷺ أكثر من صحابته الكرام؟ فالسنة ليست بالشيء الجامد، وإنما عمل مستمر، وقد كانت أنظار صحابة النبي ﷺ مرتكزة على روح السنة لا على ظاهرها، لذلك لا يعدون الاختلاف على المحاكاة النبوية انتهاك للسنة، ولن يجرؤ أحد على اتهامهم بإنكار السنة.

لقد شغف المسلمون منذ البداية بعلم السيرة بسبب تعلقهم الفائق وارتباطهم العاطفي برسول الله، ولا يوجد أدنى حرج في إحياءهم المجالس بذكر أيام رسولهم الحبيب وسرد وقائعه، وتعطير عقولهم بذكرياته العطرة، وبسبب هذا الحب الفائق كانت مجالس المحدثين تكتظ بعامة الناس، وما أن فارق أصحاب رسول الله الدنيا حتى بدأ الإحساس بضرورة جمع وتدوين وقائع تلك الأيام المقدسة، وقد قام الناس بصورة شخصية بإعداد كتب في هذا الصدد، ولكنهم عملاً بالحديث الذي أورده مسلم: «لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن، فمن كتب مني غير القرآن فليمحه». لم يكن أحداً ليتجرأ على أن يهتم بضبط وتدوين الحديث سواء على الصعيد العام أو الرسمي. إن قرار جمع ونشر كتب البخاري ومسلم - والتي لاقت قبولاً كبيراً بسبب محاسن التدوين وتراجم الأبواب - وكذلك أصول الكلييني وفروعه - التي صارت فيما بعد أساساً للمذهب الشيعي، بسبب وجهتها الشيعية - كل ذلك كان اجتهاداً شخصياً من قبل أصحابها، ولم يكن مشروعاً مشتركاً للأمة،

كما أنه لم يتم بإيعاز من الخليفة في ذلك الوقت، فقد كان يُنظر إلى تلك الكتب وقتئذ كسائر الكثير من الكتب الرائجة عن سيرة الرسول، ولم تكن ذات حيثية تشريعية وتقديسية أو مصدر أبدي للسنة، ولو أن الأمر كذلك، لم جرأ الإمام مسلم في جداله مع أستاذيه الذهلي والبخاري على أن يرد إليهما الأحاديث التي جمعها عنهما، حيث كان يُنظر إلى تفاسير تلك الكتب على أنها مناظرات ذات نزاع سياسي، وأنها أقوال منسوبة للرسول، وليست أقوال خالصة عنه ﷺ.

فهذه الكتب تارة تقول بأحقية آل العباس بالخلافة، وتارة أخرى ترى أنها خاصة بـ الفاطميين، وأحياناً تذكر (تلك الكتب) تنصيب علي رضي الله عنه للإمامة في غدير خم، وأن عمر رضي الله عنه قد منع رسول الله ﷺ حين وفاته من كتابة الوصية، وأن الشيخين قررا التعجيل بهذه القضية (قضية الخلافة) في غياب الإمام علي لحرمانه من الخلافة، فتهيأت بذلك بيئة جاهلية وسط حرب وجدال متبادل، وعلى هذا يُفهم أن هذه التفاسير هي نتاج التلون التاريخي، ووجود تلك الروايات في الصحاح الستة ومسند الإمام أحمد وكتب الحديث السنية الأخرى دليل على أن هذه الكتب كانت تعد إرثاً ثقافياً مشتركاً. لكن عندما ظهرت إلى حيز الوجود - بسبب تمزق الخلافة في القرن الرابع الهجري - جماعات العباسيين والفاطميين والاثنا عشرية، ونالت تلك الجماعات رعاية الإمارة، واتخذت لنفسها كتباً خاصة، فقدم الشيعة الكتب الأربعة ذات التاريخ السياسي، ووضعوها منزلة

الدين والعقيدة، وأضفى أهل السنة قدسية على كتب الصحاح الستة المهجورة من قبل الشيعة. واليوم يصعب علينا معرفة الموجد الحقيقي لمصطلح الصحاح الستة، ومتى استعمل هذا المصطلح أولاً؟ ولكننا بالضرورة نعلم أنه لا يمكن أن يكون هناك اتفاق بين علماء الحديث بعد مضي ألف سنة حول الكتب التي تشملها الصحاح الست، فالبعض يعتقد في أن كتاب الموطأ ضمنها، والبعض يصر على أن ابن ماجه أحق بهذه المنزلة، أما فيما يتعلق بمقولة (**أصح كتاب بعد كتاب الله**) المبالغ فيها، فالبعض يرى أن المراد بها صحيح البخاري، في حين يرى البعض أن مسند الإمام مسلم جدير بها.

وفي عهد الخليفة منصور رفض الإمام مالك بشدة منح الموطأ منزلة فقهية أو تشريعية للأمة، لأنه كان يدرك أن أي جهد علمي مهما جُرّب معه من أساليب الحيطة في جمعه وتدوينه، فإنه لا يرقى إلى المكانة التشريعية، فإذا - ودون أي سبب - بالعمل الذي ظل الإمام مالك يتدبر فيه رغم القرب الزماني والمكاني، يُبررفعله للمدونين فيما بعد.

الحزبية الجديدة

إذا كان تمزق الخلافة وتدهورها سبباً في تقوية فرق كالشيعة والسنة والإسماعيلية والإباضية، وإذا كانت التدابير السلمية السياسية المؤقتة قد منحت معسكرات الأئمة الأربعة التقديس والخلود، فإن الحركات المثيرة للفتنة والتي ظهرت بعد سقوط الخلافة في القرن العشرين لسد الفراغ السياسي، هي أيضا كانت سبباً في قيام المزيد من المعسكرات داخل الأمة، فكما أن المتقدمين قد أخطأوا في صبغ العقيدة بصبغة الاختلاف السياسي، الذي نتج عنه ظهور أمم متعددة داخل الأمة الواحدة، فقد ارتكبت حركات القرن العشرين الخطأ ذاته في حمية الإصلاح، فقد قامت جماعة الإخوان المسلمون لحسن البنا، وحركة الإيمان للشيخ الياس، والجماعة الإسلامية لأبي الأعلى المودودي، جميعها في البداية كان من أجل إحياء النظام الاجتماعي للإسلام، وإعادة تنظيم الأمة من جديد على حقيقة رسالة الإيمان والإخلاص، ولم تمض أياماً كثيرة حتى صارت

هذه التنظيمات ذاتها أسيرة للنفسية الطائفية، فهل كان المسلم – وحتى اليوم – مبتلا بالطائفية الشيعية والسنية، أم أن دعاة الخلافة الروحانية والطوائف الفقهية المتحاربة قد شتتوا حياته الاجتماعية؟. وبذلك أصبحت تلك الحركات الجديدة سبباً في قيام المزيد من المعسكرات بدلاً من أن تعمل على تنظيم وحدة الأمة وأمورها الإجتماعية.

ورغم أن مؤسسي هذه الحركات قد واجهوا معارضة شعبية شديدة في البداية، كمسافر جالس في القطار يُظهر ضيق صدره وتحفظه لكل قادم جديد، وبقي هذا هو حال هذه الحركات، فعلى سبيل المثال واجهت الجماعة الإسلامية رفضاً كاملاً من علماء الأمة والسواد الأعظم في وقت حظيت فيه جمعية العلماء وحزب الرابطة الإسلامية بالقبول، لكن عندما دعّمت الجماعة معسكرها شيئاً فشيئاً، بدأ يُنظر إليها كجزء من منهج المؤمنين.

إن الحركات التي ظهرت في القرن العشرين تحت شعار التجديد والإصلاح، لها خدمات جديرة بالإشادة، لكن بعد أن قامت هذه الحركات بدورها فإن استمرار بقاء بقاياها في صورة جماعة ذات نظرة مستقلة، ليس – يقيناً – فأل خير على وحدة الأمة، فعندما كان يُنظر إلى تنظيمات القرن العشرين هذه باعتبارها استجابة وقتية، لم يكن هناك خطورة على وحدة الأمة، إلّا أنها فيما بعد وعندما اتخذت طابع الجماعة ذات النظرة المستقلة التي تقوم على مبادئ كتابات مؤسسيها، وغلب عليها طابع الفرقة بدلا من كونها حركة وقتية، حينئذ قُدّرت

خطورة الوضع إلى حد ما، فهذه الجماعات المختلفة التي وضعت برامج متعددة للأمة وتفاسير مختلفة للدين، ليس من السهل اتحادها واتفاقها، فقد وضعت كل جماعة نظاماً بديلاً للإمارة والخلافة، حيث يطالب أمير التنظيم من أتباعه باسم التنظيم إطاعته كخليفة للعصر، وفضلاً عن هذه الجماعت جاء إلى الميدان تحت شعار الدين أشخاص حاولوا تنظيم هوية نظرية جديدة بمسميات مختلفة مثل «المنهاج الدولي»، و«مهمة الرسالة»، و«القرآنيين»، وبالنظر يبدو جلياً أن هذه الجماعات المختلفة دعمت ونظمت - باسم التجديد والإحياء والدعوة والتبليغ - مزيداً من الهوية الطائفية بدلاً من تشكيل وحدة الأمة.

والآن فإن لفظ الفرقة يعتبر هو الأنسب لتلك الهويات الطائفة بدلاً من الحركة، وكأن الأمة التي كانت تواجه من قبل الطائفية الشيعية والسنية، التي كان وجودها منذ قرون متلطخا بالمذابح المشتركة بين الحنفية والشافعية، تواجه الآن في عصرنا هذا تفككاً داخلياً في ظل جماعات كالتبليغ، والجماعة، والسلفية، وجمعية العلماء، والديوبندية، والبريلوية، وغيرها الكثير، والمصيبة هى أن هويات جديدة متواصلة آخذة في النمو داخل هذه الهويات.

وحين تنقسم جماعة إلى فريقين، أو تنقسم مدرسة نتيجة للتفكك الداخلي إلى مدرستين دار العلوم ودارالعلوم وقف، فإن اتخاذ هذا القرار يشكل إشكالية للمسلمين، إذا أن الحق مع من؟

مع مدرسة دار العلوم ديوبند أم مع مدرسة مظاهر العلوم أم مع جمعية العلماء أم مع الحركة السلفية، فمع عملية التقسيم المتواصلة هذه تشتد حدة هذا السؤال في أذهان عامة المسلمين، هل التفرق والتشرذم جزء لا يتجزء من الإسلام والإسلاميين؟.

وفي النهاية ما السبب في أن هؤلاء العلماء الربانيين - الذين يدعون الأمة ليل نهار إلى الاتحاد - جماعاتهم ذاتها منقسمة وصراعاتهم تُنظر في القضاء الرسمي؟ إن تحركنا هذا باسم الدين الذي أصابنا بمسلسل التفرق، والذي بسببه اليوم صار من المستحيل اتحاد واتفاق الجماعات والفرق الإسلامية المختلفة على الرسالة الإلهية، فإلى أين ينتهي بنا هذا الوضع؟. فالطريق مسدود أمامنا، ورحلة الطائفية الإسلامية على مدار ألف عام قد انتهت بنا إلى هذا المنعطف المسدود، حيث لا سبيل إلى الخروج منه، و كل المحاولات التي بذلت من أجل إزالة أسباب هذا التفرق والتشتت استظلت بظل المنهج الفقهي وأسلوب الفكر الطائفي، الذي هو في الأصل مسؤول عن خلق هذه القضايا، وفي اعتقادي إن طريقة العمل التي أثارت هذه القضايا، وعملت على إزكاءها، لا يمكن بها أن ينصلح هذا الوضع، لهذا نحتاج إلى أن تكون هناك بداية جديدة، إلّا أن المشكلة تكمن في أن علماء الإسلام التقليديين وأهل العلم الذين منحوا أحداثنا التاريخية والفكرية والنظرية قدسية الدين والإيمان يخشون من أي بداية جديدة، وتخوفهم يكمن في أن أي

محاولة واقعية للاجتهاد والإصلاح يمكن أن تؤثر على صرح الإسلام التاريخي. يقول الشاعر والمفكر ال«ندمحمد اقبال ما ترجمته:

الخوف من دستور جديد أو السير على منهج قديم

إنها المرحلة الشاقة في حياة الأمم.

إن انحراف فكرنا ورؤانا بدأ مع الاختلاف السياسي، وإن كان قد وجد بيئة مناسبة للنمو بصورة منتظمة في القرنين الثالث والرابع الهجري، وظل ينمو ويتزايد في القرون التالية، حتى انهار الهيكل الاجتماعي للأمة تحت وطأة تفككها الداخلي، فقد ظلت الخلافات الداخلية هى المحرك الرئيس في سقوط الخلافة الأموية والفاطمية والعباسية أكثر من العوامل الخارجية، ونجد الدرس نفسه في سقوط الخلافة المغولية والصفوية والتركية، فنحن لا يمكن أن ننهزم إلّا بأنفسنا، فعملية إحياء العالم الإسلامي ووحدته الممكنة معرضة اليوم أيضاً لخطر كبير من داخله، فإذا ما نظرت نظرة ثاقبة على ما حولك، تأكدت هذه النقطة أكثر، وتذكر! أنه لم تمر أيام كثيرة على انتصار المسلمين بعزيمتهم وتضيحياتهم الفائقة في جهاد أفغانستان على أكبر جيوش العالم، لكن عندما حان وقت تشكيل نظام جديد، تشابكت سيوفنا مع بعضها البعض بسبب العصبيات العرقية والقبلية والفقهية والطائفية، وصار الإسلام الفقهي لطالبان بمثابة تعذيباً وتعزيراً للفرق الأخرى. وباكستان التي نُزعت كمختبر للإسلام، وراح ضحيتها ليس فقط مئات

الآلاف، وإنما تم التضحية أيضاً بماضي ومستقبل الإسلام في شبه القارة الهندية، فهناك لم نستطع أن نلتف حول هذه النقطة، وهى أي إسلام أحق بأن يكون ديناً للدولة؟ بمعنى أي فرقة وأي فقه يجب أن تكون له السيادة؟ فالوضع المتمثل في «كل حزب بما لديهم فرحون» مهد الطريق للديمقراطية العلمانية، وكلما تقدم الدين بمفهوم سياسة الفُرْقة، كلما أصبح من الصعب على جماعة من المسلمين تحمل الجماعات الأخرى، فهناك في الشرق الأوسط نجد الكراهية بين السنة والشيعة تنمو بصورة متواصلة في ظل رعاية إقليمية منضبطة.

ولا يعلم أحد متى ينفجر هذا البركان؟ ولا هذه النار التي تهدد مركز العالم الإسلامي - لا قدّر الله - بدمار مخيف، إن هذا هو الموقف الذي نواجهه اليوم، والذي جاء كنتيجة منطقية لانحرافنا الفكري على مدار ألف عام، وشاركنا في ترسيخه، وتبدو الأوضاع غاية في الخطورة، وعملية التصدي لها الآن لن تتأتى بالأساليب التقليدية المحضة.

ما ينبغي عمله

إذا أمكننا أن ندرك هذه الحقيقة، وهى أن التفسير الطائفي للدين الذي واجهنا على مدار قرون بالتشتت النظري والحرب الأهلية المتبادلة، والذي اعتبرناه مخطئين الدين عينه، في حين أنه ليس له علاقة بدين محمد ﷺ، إنما هو في الأصل نتاج تاريخنا المتأزم، إننا نمتلك من الإمكانات ما يمكن أن يُعمّر عالم بأسره، فانقسامنا وتصارعنا فيما بيننا ليس بمطلب إلهي، كما أنه أيضاً ليست من تعاليم الرسول، الذي منحتنا شخصيته الكريمة نحن المسلمين الأسوة الحسنة (السنة)، التي لا يمكن أن تهتم بمثل تلك المسميات المصطنعة كالشيعة والسنة والحنفية والمالكية والسلفية والظاهرية. فلو أننا وقفنا على هذه الحقيقة التاريخية وهى أن معسكرات الشيعة والسنة والإسماعلية قد تم تنقيحها بصفة منضبطة في القرن الرابع الهجري، وأن الخلافة العباسية غدت رائدة للإسلام السني بعد التقسيم النظري للإمامة، حيث كانت قد واجهت في البداية حركة آل البيت،

واستناداً إلى هذا وجد دعاة آل العباس الفرصة لتقوية خلافتهم، فلو لم يبسط الفاطميون سيطرتهم على مصر، ولو لم تقم لآل البويهيين إمارة تحت ظل الخلافة العباسية ذاتها بسبب ضعفها، لما كانت هناك هويات مختلفة للمسلمين كالشيعة والسنة والإسماعلية، ولما وجد الأباضيون فرصة ليعرفوا أنفسهم بأهل العدل والاستقامة.

إن كوننا شيعة أو سنة ليس منزلاً من عند الله، وإنما هو من بقايا الوقائع التاريخية، كما هو الحال مع هويتنا المنهجية، التي لم يختارها الله لنا، كما لم يعلمنا الرسول ﷺ أتباع الأئمة الأربعة أو الثمانية، فكل الجهود العلمية لأبي حنيفة ومالك والشافعي كانت في القرن الثاني الهجري، لكن تراءى لهذه القاعدة فيما بعد في مختلف البلاد والأمصار نشاط لعشرات من كوكبة أهل العلم كسفيان الثوري، والأوزاعي، وابن راهوية، وابن جرير الطبري. فلو أن الملك «بيبرس» لم يقم بتعيين أربعة فقهاء بدائل في وقت واحد لإنهاء الجدال الفقهي، ولو أن الملك «برقوق» فيما بعد في مطلع القرن التاسع الهجري لم يهتم بالمصليات الفقهية الأربعة في حرم الكعبة، لما عرف الإسلام السني مصطلح الأئمة، واليوم وكما لم يتأثر الدين الإسلامي بغياب مدارس الثوري والأوزاعي والطبري الفقهية، فإن حياتنا الدينية ستستمر في التحرك بدون الأئمة الأبعة، فابن حنبل وضع تصور الخلفاء الأربعة في عهد «المتوكل»، وفي المقابل عرف الشيعة الخليفة بلا فصل، الذي لم يكن يُعترف به كفقيه ليس فقط في

عصره، وإنما حتى فيما بعد بزمن بعيد، وكانت خطبة الجمعة قبل ظهور الفاطميين تعبر عن وجهة النظر السياسية بدلاً من العقيدة، ثم جعل الفاطميون تفضيل الخمسة الأطهار جزء من الخطبة، ثم أضاف العباسيون لها - مع دعواهم الأحقية بالخلافة - ما اعتبروا به أنفسهم ممثلين لسبيل المؤمنين.

إن مصطلح العلوم الشرعية عندنا لعب دوراً كبيراً في تعميم التصور الغير قرآني لثانوية العلوم الدينية والدنيوية، في حين أن صفحات القرآن والحديث خالية من ذكره، وكان أبو عبد الله الكاتب الخوارزمي (المتوفي ٣٨٧هـ) هو أول من استخدم مصطلح العلوم الشرعية الذي أسفر فيما بعد عن ظهور إحدى حلقات وإرثي علوم النبوة، فهذه المدارس الإسلامية المنقسمة باسم الدين، والتي نعتبرها اليوم قلاع الإسلام السني أو الإسلام الشيعي قد ظهرت كنتيجة للمصلحة الوقتية والرقابة السياسية للفاطميين والعباسيين، وعليه فاستمرار بقاياهم، واعتبارها قلاع للإسلام ما هو إلّا نتيجة نابعة من الجهل بالتاريخ.

كما أن لباس العلماء الخاص، والذي فيه يبدون مختلفين عن عامة الناس وكأنهم مخلوق سماوي، لا تجد له أثر في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد الصحابة رضي الله عنهم، فلو أن القاضي أبو يوسف لم يقم بترويج زي خاص للقضاة، لما شهد المجتمع المسلم ملابس للعلماء مختلفة عن عامة المسلمين، إن هذه المعلومات التاريخية هى التي قسَّمت الشيعة والسنة إلى فرق منفصلة، وبسببها لم يحدث فقط الاختلاف فيما بينهما، وإنما

أيضاً النفور الديني، فكل هذه الكتب التاريخية والأثرية قد جُمعت في القرنين الثالث والرابع الهجري، ولو أن الفرق الإسلامية المختلفة لم تمنح حيثية تفسيرية أو تشريعية لروايات تلك الكتب، أو أنها فُقدت بين طيات التاريخ شأنها شأن بقية الكتب الأخرى، أو أنها وقعت في يد الأعداء إبان سقوط بغداد أو سقوط قلعة الموت، لاختلف اليوم وجداننا التاريخي كلياً.

ولو أن دعاة الخلافة المتحاربين لم ينتهجوا نهج الخلافة الروحانية في لباس أهل الصفاء، ولو أن الدعاة الفاطميين لم يرسلوا مبعوثيهم أولي العزم نحو خرسان وملتان ودهلي، لما عرفنا مصطلحات الإرشاد والأتباع والبيعة والخلعة، وما أحس المسلمون السذج بضرورة الارتباط بالزوايا والتكايا باسم الدين، كما أن عملية تشكل بقايا الجماعات والحركات في فرقة دينية أمر لم يمض عليه وقت طويل، عندما بدأنا نعتقد - نتيجة لحالة اليأس - في حالة غياب الخلافة أن المركزية العالمية للإسلام الآن ما هي إلّا فكرة غير قابلة للتطبيق، لذا أديرت الأمور عن طريق إمارات صغيرة كهذه. إن المشاركة في أعمال الخير وروح «فاستبقوا الخيرات» هو جزء من إيماننا، لكن العيش في بيئة الفُرْقة الدينية وقيام الإمارة والخلافة بداخلها والمطالبة بإطاعة قائدها كإطاعة أمير المؤمنين، وفوق كل هذا العمل على إعطائها صفة الخلود والدوام، كل هذه الأمور ما هي إلّا نتاج تاريخنا المتأزم، وإن كانت قد فرضت عليه، إلّا أنه لا يمكن الاستشهاد عليها بدليل من الكتاب والسنة.

ليتنا ندرك إدراكاً واقعياً أن الله تعالى قد أنزل كتابه، وأرسل رسوله ليتم هذا الدين في حياته ﷺ، وما حدث بعد ذلك ما هو إلّا تاريخ للمؤمنين، يحوي لحظات العزيمة واحتمالات حدوث الزلات، فلو قُرئ باعتباره تاريخاً، سيكون مدعاة لنا لأخذ العظة والعبرة، كما يمكننا في المستقبل عدم الوقوع في أخطاء الماضي، ولو أننا منحناه منزلة تشريعية وتقديسية لا نفلت من بين أيدينا حبل الله المتين.

الإسلام الموحد:

الاحتمالات والمخاوف

إننا نتبع الإسلام المتوارث منذ ألف عام مضت، ونرى الدين على أنه تصورات مختلفة مشكّلة في مراحل التاريخ المختلفة، والتخوف من وضع كهذا هو أمر فطري، فلو طُوي بساط التدين السائد، فماذا سيحدث لدين المسلمين الفقهيين، سيقال بشكل عام، أنه بدون الفقهاء والمحدثين سيكون من الصعب أداء الصلاة والصيام والحج والزكاة، وهناك خطأ شائع، وهو أنه لو لم يقم المفسرون بتوضيح أسباب النزول، ما انجلت لنا معاني نصوص القرآن الكريم، كما أنه لولا المتصوفة وأهل الله ما كان لقلوبنا أن تستنير بتجليات المشاهدة وسكينة المراقبة، وكأنك تعطل العمل بالدين ذاته بالسير على نهج التدين السائد، وفي اعتقادي أن هذا النوع من المخاوف هو نتيجة الفهم القاصر للدين الحق، ولتتدبر قليلاً! كيف كانت عليه حياة المسلمين الدينية والعقائدية قبل ظهور هؤلاء الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفين؟ فقد كانت توجد هناك

آراء متنوعة حول القضايا السياسية المختلفة وكذا فيما يتعلق بأمور التفسير والتأويل، ورغم ذلك كانت الأمة في حالة وحدة مستقرة، وذلك لأن القرآن الكريم كان له منزلة المرجع الرئيس في غياب الرسول، ولم تكن مناقشات المكروه والمباح قد ظهرت بعد، كما لم يكن لأحد أن يثير سؤالاً عن طريق حديث قولي أو بخبر الآحاد حول السنة الثابتة الواضحة، حيث كان يعتبر كتاب الله كتاباً مبيناً ومبرهناً، كما لم يكن ليخطر ببال أحد أن الله تعالى ترك شيئاً ناقصاً أو نقطة ما ففرض عليه أن يفسرها أو يشرحها حتى تُفهم، لقد أقام رسول الله ﷺ في حياته المباركة مجتمعاً للنفوس المُسلّمة، كانت تُعْمِل القرآن الكريم - في كل مراحل تاريخها المقبل - وكأنه منارة لها، وكأن كتاب الله وسنة رسوله قد تبلورا في صورة إبداعية حية، لم يشعر معها أهل الإيمان بمكان خال للربائية والبابوية والمشيخية.

واليوم يشعر البعيدين عن تشتت فقهاء الدين بحياة رحبة وسعة في الدين الإسلامي، تحدث فقط عند مجيء رسول جديد وعند القضاء على تقاليد تدينية جامدة، ولربما حرموا من معرفة أن فرائض الوضوء أربعة أو ستة أو سبعة، أو ما هي سننه أو نوافله، وكم عددها، وما هى أهمية رفع اليدين عند الصلاة وقراءة الفاتحة خلف الإمام والجهر بـ(أمين)، كما لن تعترضهم صعوبات في الوضوء نفسه أو عند أداء الصلاة، وذلك لأن مُثُل رسول الله ﷺ المقررة قد نقلت إلينا جيل بعد جيل وعصر بعد عصر، حيث نجد أنفسنا اليوم جزء من هذه الحلقة، وأما

الاختلافات فهي إما نتاج تدقيقات وتعقيدات للفقهاء، أو أن الروايات المتضاربة للرواة قد أوجدتها. إذن أخبرني! كم منا نحن المسلمون يعلم سنن الوضوء أو نوافله ومستحباته، ومع ذلك فإن صلواتنا مستمرة.

والحقيقة هى أن هناك أسفاراً ضخمة ونقاشات طويلة لتعقيدات فقهية باسم الدين لا علاقة لها بالحياة العملية المتحركة، نعم توجد هناك مادة خاصة للجدال الفقهي والنقاشات الغير ضرورية، والأهم من كل ذلك أننا لا نطالب بالقضاء على هذه المجلدات الضخمة، وإنما نطالب فقط بعزلها عن المقام التشريعي، حتى يتسنى للقرآن الكريم أن يستعيد من جديد منزلته المركزية في المجتمع المسلم.

تذكر! أن القرآن الكريم هو وثيقة الوحي الوحيدة في غياب الرسالة، وهو فوق كل الشكوك والشبهات، ويحتل مكانة الدستور المتفق عليه بين المسلمين أجمعين على الأقل ولو بشكل نظري، فأين يمكن أن نجد كتاباً آخر أفضل من كتاب الله فيه بيان لأهداف ومقاصد رسالة النبي وأولوياتها؟ إننا نؤمن بأن هذا المصدر الخالد للوحي سيؤدي دور الهداية والإرشاد لشعوب العالم قاطبة حتى اللحظة الأخيرة، وعلية فأي ظلم أكبرمن أن يُجعل كتاب الله المنير كالعدم عن طريق التأويلات الظنية لأسباب النزول والعام والخاص والناسخ والمنسوخ، أو أن ينتقي علماء الشرع آيات الأحكام منه ظلماً، لتُجعل الكثير من آيات الكشف والموعظة والحكمة فقط للتلاوة.

إننا نتوقع لهذه الدعوة – وهى جعل القرآن منارة طريق – أن تعيد القرآن كله إلى طاولة دراساتنا، فإذا قُدّر لذلك أن يحدث، فلن تذهب فقط الحيثية التشريعية للمصادر الثانوية للدين، والتي دخلت المجتمع المسلم عن طريق العلم ذاته، بل ويمكن تنحيتها دفعة واحدة، فبسببها وقعت قافلتنا الفكرية منذ زمن فريسة للتخبط والترنح، وهكذا يمكن فهم أن كتب الفقه والروايات وكذا كتب التفاسير والشروح ستبقى بيننا في صورة إرث ثقافي وعلمي متواصل، ولن يستطيع أحد أن يقدم حجة عن طريق تأويلات المفسرين والفقهاء أو الاستشهاد بأقوال القدماء في ظل وجود القرآن الكريم، كل هذا سيخلق حالة تزول فيها حيثية حجة الله البالغة عن أي مؤلف بشري، ويبقى هذا الحق فقط خاصاً بكتاب الله.

وبسقوط الحيثية عن المصادر الثانوية يكون من البديهي أن تُحل الفرق القائمة على أسس تلك المصادر، كما لن يُشكّل قالب ديني مستقل على أساس كتب الصحاح الستة السنية، ولن يكون هناك إحساس بضرورة الإذعان لكتب الشيعة الأربعة. وإن كان لا بد وأن يستفاد من كتب الأئمة الأربعة لعظم قدرها العلمي، فإن كتب تفاسير الشيعة والإسماعيلية والأباضية وكل الفرق الأخري تستحق على السواء أن نوليها إهتمامنا، وهى التي ظل ماضيها متصل ومشترك بنا، إلى أن انفصل عنا لأسباب في لحظة من لحظات التاريخ، وذلك يعني أن قصة الطائفية القائمة على أساس الأدب التفسيري والثقافي

والتاريخي ستلفظ أنفاسها الأخيرة، حتى أن أحداً لن يجد فرصة لأن يُعلن من تلقاء نفسه عن طائفة مستقلة استناداً إلى كتاب الله، وأن يختار لنفسه لقب أهل القرآن تاركاً هوية «المسلم» الممنوحة من الله تعالى.

وفي رأيي أنه إذا ما أُعطى القرآن الكريم الصدارة حقاً في النقاش، فلن يكون هناك متسع للطائفية، كما لن تكون هناك حاجة لمعامل العلماء والأحبار بعد زوال الفرق، ولن يشعر أحد بالحاجة إلى أن يبحث عن اختلاف آراء الفقهاء في كتب الفقه المقارن، كما لن يُهتم بتطور البحث والعلم في مجال كتابة شروح على شروح كتابات الأقدمين، ولن تكون هناك حاجة إلى تسويد صفحات وصفحات من أجل مرجع ضمير، ولن تكون هناك حاجة إلى الانشغال بكتب علم الكلام والمنطق البالية كأداة للفهم والتفسير، ولن تضيع أعماراً في البحث عن أن راوياً مشكوك في ثقته أو أن آخر يمكن أن يعتبر جدير بالثقة حقاً، وكأن أشياء كثيرة أنجزت لصالح البشرية، والأهم من كل ذلك أن علم الثنوية الذي نسير أسرى في ركابه منذ قرون، والذي بفضله أوجدت عملية تقسيم العلوم إلى شرعية وحديثة بداخلنا عقليتين مختلفتين ومتصارعتين، سينتهي هذا الصراع والتشتت الداخلي تماماً، وسيتمكن كل شخص من أن يكتسب من الوحي الإلهي مباشرة ما يوفق له، وسيجد طلاب الحق أنفسهم - في عدم وجود العلماء والأحبار والمشائخ والمفتيين - في حالة يُعبّر عنها القرآن الكريم بقوله «قل الله يفتيكم»، حيث لا قيمة

لكل التدقيقات الفقهية والفتاوى البشرية أمام فتوى الله تبارك وتعالى.

اعلم يقيناً! أنه إذا ما مثل أمامنا الدين الخالص في صورته الأصلية، تولدت حالة مليئة بالسعادة والراحة النفسية، سبق وأن جربها مسلمي الرعيل الأول، فالدين هو التسليم الكامل غير المشروط، وعلى العكس منه الدين الجامد، الذي يُوجده من يظنون أن الدين فقط نوع من العادت التعبدية، ففي الوقت الذي كانت تنزل فيه رسالة الله الخاتمة على رسوله في مكة لم تكن عادات التدين بالقليلة، فمكة كانت مهداً للأصولية الدينية، حيث كانت تُؤدى فيها بشكل منضبط جداً مظاهر الصوم والصلاة ومراسم الطواف والزيارة، وقد وجه القرآن الكريم نقداً شديداً لهذا النوع من المتاجرة بالدين، حيث يقول:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الماعون: ١-٧].

إنه عندما يرتدي الدين عباءة المذهب، ويتركز اهتمام أتباع الدين على مراعاة مراسم جامدة فقط دون الاهتمام بأهداف ومقاصد الدين، عندها تظهر في المجتمع طبقة من العلماء تتأهب طوال الوقت لجمع وتدوين التفاصيل الدقيقة عن تلك المراسم، وهذا هو الباب السري الذي من خلاله تتدخل المشيخية بين العبد وربه، ثم يتحول الدين إلى مسمى للحفاظ على المصالح السياسية والاقتصادية للمشيخية، مثلما كان الحال

في المجتمع المكي قبل الإسلام، وهو ما سبق وأن قدمنا – على سبيل المثال – نقد القرآن الشديد له، ولم ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل تصبح رفعة الأحبار عائقاً لنا في الاستفادة المباشرة من الوحي الإلهي، ومن ثم تظهر فرق وجماعات مختلفة نتيجة لإعطاء قدسية وموثوقية لفهم شخصي لأناس مختلفين، ولسوء الحظ فقد وصل حال الأمة الإسلامية اليوم بعد انحراف تاريخي على مدار قرون إلى أنه لن يكون لها مستقبل بدون إصلاحها الداخلي، ولن يمكنها أن تكون مرة أخرى منارة نور لشعوب العالم في منعطف تاريخي كهذا حيث شمس الرأسمالية تؤول إلى الغروب.

لقد أوجد الفراغ النظري والفكري حالة من اليأس الشديد فيما يتعلق بالمستقبل، ومن الضروري على حملة الوحي الأخير أن يتقدموا لهداية شعوب العالم في ظل غياب النبوة، وهو ما يستحيل أن يحدث في هذا الوقت طالما لم نهتم نحن أنفسنا بالفهم الواقعي لرسالة الإسلام الموحد وما هو وراء هذا التشتت النظري والحروب الأهلية الداخلية، فطالما لم نصلح بيتنا من الداخل، فكيف يمكننا القيام بمهمة هداية وإرشاد الآخرين في الخارج؟ لقد حان الوقت الآن ليتقدم حملة الوحي الأخير مرة أخرى إلى العالم لإعادة تنظيم القافلة البشرية وإصلاح وجهتها ومسارها من جديد.

فهرس المحتويات

تمهيد ٥
تقديم ٧
دستور الإسلام الموحد ١٣
الحاجة إلى بداية جديدة ٢١
الفرق بين الإسلام الحنيف والإسلام التاريخي ٢٧
نظرة على بعض الانحرافات الهامة ٣١
الدين الملهم: مرجعيات بشرية ٣٧
ظهور أحبار الإسلام ٤١
الخلافة الروحانية أو الإرشاد والأتباع ٥١
الهيمنة العنصرية ٥٧
التفسير الطائفي للسنة النبوية ٦٣
الحزبية الجديدة ٧٥
ما ينبغي عمله ٨١
الإسلام الموحد: الاحتمالات والمخاوف ٨٧

يعد نشر هذا الكتاب بمثابة حجر زاوية مهم لألف عام من تاريخنا الفكري، فليس عجيباً إذا قُرئَ بإمعان أن يصبح نقطة بداية لتحول جديد.

فكوننا شيعة أو سنة، أو اسماعيلية أو إباضية، أو تفرقنا إلى حنفية وشافعية وزيدية وجعفرية، أو تبنى فكر البريلوية، والديوبندية، وجماعة التبليغ، والسلفية، إنما هو زيغ مختلق عن تاريخنا ولّد بمرور الزمن فرقاً وطوائف مختلفة ومتصارعة مزقت أواصل الأمة وفتتت عضدها. واليوم تتطلب منا أوضاع العالم المضطربة أن تنهض أمة النبي الخاتم ﷺ على الفور لهداية شعوب العالم، الأمر الذى لن يتحقق طالما لم ينصلح بيتنا ذاته.

ويكشف لنا نور الوحي، وكذا مطالعة التاريخ على أن أمامنا خيارين لا ثالث لهما، فإما أن نُعِدَّ أنفسنا لقيادة العالم كحملة آخر الرسالات، أو نرضى بسخط الله مثل الأمم المغضوب عليها ومزبلة التاريخ على أنه قدرنا.



لتحميل كتب المؤلف بلغات مختلفة مجاناً

www.RashidShaz.com

لشراء الكتب من على الانترنت

www.Barizmedia.com

للمطالعة المجانية لجميع أعداد المجلة الصادرة ضمن مؤسسة المؤلف

www.FutureIslam.com

